على السَّفُّود

نظرات في ديوان العقاد

تأليف

مصطفى صادق الرافعي

صححه وعلق عليه

حسن السماحي سويدان

راجعه وقدم له

الدكتور عز الدين البدوي النجار



دار البشائر
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - ص.ب ٤٩٢٦ - هاتف ٢٢٦٦٦٦٨/٩ - فاكس ٢٢١٦١٩٩



دار المعلمة
للنشر والتوزيع
الرياض ص.ب ٢٢٢ - جوال ٠٥٥٥٤٨٨٢١ - تلفاكس ٤٧٢٩٥٣١

الطبعة الثانية
دار البشائر
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

الطبعة الأولى
دار العصور - مصر
١٣٤٨هـ - ١٩٣٠م

عَلَى السَّفُّودِ

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم

الدكتور عزّ الدين البدوي النجار

أصـول:

• سأل عبيدُ الله بنُ عبد الله بنِ طاهرٍ البحتريَّ وقد كان حاضراً مجلسَه: «أَمُسْلِمٌ أشعرُ، أم أبو نُواس؟ فقال: بل أبو نُواس، لأنه يتصرف في كل طريق، ويَبْـرَعُ في كل مذهب، إن شاء جَدَّ، وإن شاء هَزَل؛ ومسلمٌ يَلْزَمُ طريقاً واحداً لا يتعدّاه، ويَتَحققُ بمذهب لا يتخطّاه. فقال له عبيد الله: إن أحمدَ بن يحيى ثعلباً لا يوافقُك على هذا. فقال: أيها الأمير، ليس هذا من عِلْمِ ثعلبٍ وأضرابه ممن يحفظ الشعرَ ولا يقولُه، **وإنما يعرفُ الشعرَ من دُفِعَ إلى مَضَايقه**»[١].

---

(١) اقتبسنا هنا غير نص من النصوص الكاشفة عما يَعْتَورُ الآثارَ الإنسانيةَ وأصحابَها والمتلقيها، حين تخرج من القوة إلى الفعل، ومن الباطن المتوهَّم له الكمال إلى الظاهر الذي لا يكاد ينفك من نقص، ويتلقاها الأكفاء (وغير الأكفاء) بسرائرهم ومقادير عقولهم: بالعلم والنَّصَفَةِ، أو العلم والهوى، أو غير ذلك؛ إيماءً منا إلى المسالك الإنسانية المألوفة المعروفة في أمثال قضيتنا التي نحاولها في هذه الصحف، مذ كان في الأرض من عمل الإنسان أمر، وكان رَدٌّ عليه.

• ولقي صريعُ الغواني مُسْلِمُ بنُ الوليدِ أبا نُواسٍ الحسنَ بنَ هانىء فقال له: «ما يَسْلَمُ لك بيتٌ عندي من سَقَط. قال: فأيُّ بيتٍ أسْقَطْتُ فيه؟ قال: أنشدني أيَّ بيتٍ شئت. فأنشده:

ذَكَـرَ الصَّبُوحَ بسُحْرةٍ فـارتـاحـا وأمَلَّـهُ ديـكُ الصبـاحِ صيـاحـا

فقال له: قد ناقضت في قولك، كيف يُمِلُّه ديك الصباح صياحاً وإنما يبشره بالصَّبُوح الذي ارتاح له؟ فقال له الحسن: فأنشدني أنت من قولك، فأنشده:

عـاصَى العَـزاءَ فـراح غَيْـرَ مُـفَـنَّـدِ وأقـام بيـن عـزيمـةٍ وتجلُّـدِ

قال له: قد ناقضت في قولك، إنك قلت: «عاصى العزاء فراح غير مفند»، ثم قلت: «وأقام بين عزيمة وتجلد» فجعلته رائحاً مقيماً في مقام واحد، والرائح غيرُ المقيم.

والبيتان جميعاً متخلصان، ولكن من طلب عيباً وجده».

• من أَلَّفَ استهدف.

• ومن ظنَّ ممن يلاقي (الخصومَ) بأن لن يصابَ فقد ظنّ عجزا

بـين يـدي الـتاريـخ:

كيف لو شَفَّ الوجودُ عن سِرِّه، فما في الوجود سِرّ؟ وسقطت عن الناسِ المِحْنَةُ، واستقام للإنسانية شأنُها في الأرض، وما تعالجُ من الأمر؛ فما هناك حقيقةٌ تَشُقُّ على أهلها تُطْلَبُ، ولا مَدْخُولٌ من العلم والرأي يُدْفَع؟ ومضى الأمرُ كلُّهُ على سَنَنٍ واحدٍ، صَراحاً بَوَاحاً، ظاهرُهُ كباطِنِهِ، فما من حاجةٍ إلى وصفٍ فارقٍ يَذْهَبُ به يميناً مرةً أو إلى يسار، تُقْبِلُ عليه كلُّ نَفْسٍ، ويَقَعُ مَوْقعَ الرضا من كل خاطر؟ وبطلت الخصومةُ، ووقعتِ الأُلْفَةُ، ورجع الناسُ في منازعهم جنساً واحداً لا يختلط، وأمة واحدة لا تختلف؟

عارضٌ من الفكر يَـعْرِضُ ، يُـغْرِي به مُـعْتَـرُك الناسِ الأبـدي ، يتراءى للنفس مَرْآتَـهُ المتقلبةَ الحائرة.

• أما فريقٌ من أهلِ الحكمةِ فيرَوْنَ فيه ـ لو كان ـ فردَوْسَهُم الأرضِيّ ، يَفِرّون معه من شقاءٍ إلى نَعْماءَ ، وأصلُهُ عندهم عجز في الطبيعة الإنسانيةِ أخرجه النكدُ به مُخْرَجَ الحُلُمِ ، فرجعَ فردوساً يُشْتَهى ، وقد كان واقعاً مُرّاً يَـتَـضَرَّمُ.

• وأما فريقٌ آخَرُ فيرَوْنَ هذه المحنةَ نَفْسَها سِراً من أسرار الخلق ، متكشفاً أبداً عن كلّ إحسانٍ كان أو سيكون ، ويرَوْنَ من الحكمةِ ألا تَسْكُنَ الحكمةُ كلَّ قلبٍ ، وألا تأخذَ بمذاهبها كلَّ نَفْس ، بُـقْـيَـا على أصلِ التدافعِ الذي تَعْمُرُ به الأرض؛ وتثورُ به الإنسانيةُ إلى وجوهِ المرافق والعمل؛ وتسقُطُ به لو سقط جملةٌ كثيرةٌ من منشآتِ الفكر ، لم يُخْرِجْها من مكامنها إلا اختلافُ أنفُسٍ وعقول.

فَبِنَـفْسٍ مرتبكةٍ في الحَيْرَةِ ، يُرْمِضُها من الإنسان تَخَلُّفُهُ عن كماله مع قدرته لو أراد عليه ، أو خالصةٍ ـ بتسليمها ـ لليقين = يَشْهَدُ امرؤ ما يشهدُ من أطوار الحقيقةِ وصُوَرِها وتَقَلّبها في الأرض. . يأخذُ لنفسه مما يَشْهَدُ أسًى يَـرْتَمِضُ به ، أو يقيناً يرتفع منه إلى يقين.

الخصومـات الأدبـيـة فـي الـعصـر الـحديث:

أما نحن فما نعرفُ فيما عرفناه من أحوالِ هذا الأدبِ في عصرهِ الحديثِ أغربَ غرابةً من حالِ طائفةٍ من الخصوماتِ الأدبيةِ التي نَشِبَتْ بين طائفةٍ من رجاله ، ولا من قلّتها وهوانِها في ذاتها بالقياس إلى جلالةِ أقدارِهم في ذواتهم ، وعِظَمِ مواهبهم ومعارفهم ، وأصالةِ شخصياتهم إلى الحد الذي نَحْسَبُ فيه أنها لن تتكرر في مُسْتأنَفِ الزمان.

ولابد أنهم هم أيضاً ـ بينهم وبين أنفسهم ـ التفتوا إلى ما كان بينهم ،

واستغربوا منه نحواً مما نستغرب ، فابتسموا له ضرباً من ابتسام . . وذلك بعد أن تقدم بهم العُمُر ، واطمأنوا إلى أقدارهم في الحياة وحظوظِهم منها ، وكشفت لهم الحياةُ من حقائقها مالا تَكْشِفُهُ لأبنائها إلا بعد انقضائها ، وإلا بعد إدبارها عنهم ، وتَـفَلُّتِها من بين أيديهم تَفَلُّتَ الرمالِ أو الماء . . وحينذاك فإن هذه الحكمةَ المُكتَسَبَةَ الهَرِمةَ بدلٌ شاحبٌ باهتٌ مما ضاع بتضييع أهله .

ميـراث الـحـقيـقـة :

وعلى أنه :

رُبَّ خَفْضٍ تحـت الثَّرَى وغَـنَـاءٍ　　فـي عَنَـاءٍ ونَضْـرَةٍ فـي شُحـوبِ

وربَّ فائدةٍ جليلةٍ في الفكر أو الأدب أو اللغة ، أثارتها مناسبةٌ هَيِّنةٌ عابرة ، فانقضى الهيّنُ العابرُ كما ينبغي له ، وبقي الجليلُ النافعُ ميراثاً في الأرض يُـنْـتَـفَعُ به ، كأنما أخرجته يَدُ القدرةِ جليلاً نافعاً منذ كان .

وفيما كان بين بين الرافعيّ وغيرِ واحدٍ من رجال عصره جملةٌ وافرةٌ من هذا القبيلِ ، تَعْجَبُ لمقدماتها ، ثم يُعجبُك ، بصدق طلبك للفائدة ، ما تَـوَلَّـدَ عن هذه المقدماتِ من آثار .

صـورة الـحال :

وإغراءُ التاريخِ بنفسه ، تاريخ كلِّ شيء ، أكثرُ شيءٍ حضوراً في قَلْبِ كلِّ دارسٍ مُنْصِفٍ ، من أجل أنه سبيلٌ لاحبٌ بَـيِّـنٌ من سُبُلِهِ إلى الحقيقة ، ولعله ، بعد صدق التوجه ، أولُ سبيل .

وقد كان ينبغي إذن ـ فيما كان بين الرافعي والعقاد طَرَفَيْ قضية هذا الكتاب = أن نرجعَ بالتاريخ إلى مُبْتَدَئه ، ونأتي به على نَسَقِهِ ، ونستوفيَهُ بحذافيره ، في كلّ ما تعلق بالرجلين ، وعَمِلَ عملَهُ في خصومتَها الكبيرة ، إلا أن واقعَ الحال جَذَبَ إلى غيرِ الحالِ الجامعةِ التي كانت تُغْري بنفسها

لأولِ وهلة ، وانساق الكلامُ باتجاه الرافعي خاصة ، لخفاءِ حالِهِ بالقياس إلى عامةِ قُرّاءِ العربية. وهو واقعٌ من واقع أدبِ الرافعي في تاريخ الأدب الحديث ، يُـفْهَمُ مرةً من وَجْه ، ثم يَعَيا به الفهمُ فيما وراءَ ذلك؛ وإذ كان الكتابُ الذي نُـقَدّمُ له كتابَـهُ ، فهو أولى الرجلين باستغراقِ القولِ فيه .



الرافعـي عالـم العربيـة وأديبـها :

لم يعرف الرافعيَّ حَقَّ معرفته ، ولم يُنْزِلْهُ في منزلته المُفْرَدةِ التي هي له في تاريخ الآداب = من لم يعرف أن الكمال في الفن هو أحدُ هاجِسَيْهِ العظيمين اللذين اقتسما قلبَهُ واستفرغا مجهودَه ، وأن البيانَ عن أسرار القلبِ الإنساني في أكرم أحواله ، وأنفذها نفاذاً وأعمقها عمقاً = هو هاجسُهُ العظيمُ الآخر .

وعلى أن هذين ـ في أقصى عمل القلب ـ شيء واحدٌ أفرغ إفراغاً واحداً ، أثارته من مكامنه الغامضةِ مَلَـكَةٌ عبقريةٌ ، تُلابِسُ معها الصورةُ المادةَ ، بل إنها ـ في لبابها ـ هي هي ، لا تنفكّ منها ولا تَـتَـزايل .

● لا جَـرَمَ كان الشعرُ ، الشعرُ المحضُ ، أصلاً في أدب الرافعي كله : أديباً منشئاً ، وناقداً تامَّ الأداةِ مرهفاً ، ومؤرخاً للأدب عظيماً .

وبالشعرية الخالصة ، أو بصورة منها تُطابِقُ صاحبَها شأنَ كلِّ عبقري ، استقلّ الرافعيُّ بنمطه العجيب فيما يكتب ، وبهذه الروح الغامضة التي تَسْري فيه . وهو نَمَطٌ يلتوي على كل مُقَاربةٍ له ، إذ كان مبنياً على أصول في واعية صاحبه ومُخَيلتِه ومفردات تكوينِهِ لا تكادُ تجتمع لأحد؛ كيف ومن ورائها ومعها سِرُّ الفنّ الذي لا يُدْرك ، ولا يعرفُـهُ العارفُ إلا بآثاره التي يصنعُها الموهوبون من أصحاب الفنون؟

• ونَمَطُ الرافعيِّ هذا نَمَطٌ مُفْرَدٌ ، لا تجدُ له شبيهاً في أساليب العربية كلها ، يَبِيْنُ به الرافعي من بلغاء معاصريه ومن بلغاء المتقدمين جميعاً؛ مع ما لعله يَسْبِقُ إلى أَنْفُسِ طائفةٍ من قرائه لأول وَهْلَةٍ، حين يَـرُوْعُهم ما يَـرَوْنَ من جزالته وشدّةِ أَسْرِهِ ، أنه يَـتَـقَـيَّلُ فُحولةَ المتقدمين ، ويَحْذُو على حَذْوِهم ، وينسحب على آثارهم.

وهذا وإن كان ليس بعيب في ذاته ، وليس هو موضعَ غَمِيْزةٍ في كلِّ أسلوبِ أدبٍ ما كان مؤدياً معناه ، إلاَّ أنه من الوجه الذي يُطْعَنُ به على الرافعي أحدٌ ما يؤاخَذ به ، يذهبون إلى أنه لا أسلوب له ، ويَعُدُّونَهُ مع الغموض آيةَ الجُمودِ والوَهْنِ في أدبه. وهو رأيٌ من الرأي لا يَثْبُتُ على النظر ، يَكشِفُهُ ما سَلَفَ من القول في خصوصية تكوينه ، المفضي ضرورةً إلى خصوصية أسلوبه ، فضلاً عن الفَرْقِ الظاهرِ البادِهِ بين أسلوبه وكل أسلوبٍ غَيْرِهِ قديمٍ أو حديث ، المُنْكشفِ من فَوْرِهِ لكلِّ ناقدٍ مُمَيِّز ، عارفٍ بأطواء الكلام ، بَصيرٍ بالأساليب.

وعلى أن من المُفارقة التي لا يَعْدَمُ مؤرخُ الأدبِ أمثالَها كلما جاء الكلامُ إلى الرافعيّ وأدبِـهِ وتجديده = أن ما يُـعْـتَـدُّ بـه حسنةً وامتيازاً لمثل البارودي ، انعقدت له به إمامةُ الشعر العربي الحديث ، يُذْكَرُ معه كلما ذُكِر ، يَرْجِعُ هو نفسُهُ عيباً ونقيصةً في أدب الرافعي ، أو أنه في أحسن الأحوال أكبرُ حَظِّهِ من الأدب ، بعد أن فاته عندهم جوهرُهُ المقصود !

وهكذا القولُ في الغموض: بَيْـنا هو من محاسن الشعرِ حين تُـعَـدُّ محاسنُـه ، ومن المُغْريـات بقراءته عند من يَـتَـوَفّـرُ على قراءتـه ، ومن وجوه الإمتاع فيه = إذا هو من مساوىء أدبِ الرافعي ، وأَحَدُ ما تُـعْقَدُ عليه الخناصِرُ حين يُرادُ الغَضُّ منه والزِّرايةُ عليه!

• وفي أدب الرافعي من الأعجوبة أنه تحول ، باديَ الرأي ، من الشعر إلى النثر ، أعجبَ تحولٍ يُعرف في تاريخ الأدب العربي ، ولا نظير لهذا

فيما وقفنا عليه إلا في أدب تلميذه نفسِه ، وأشبهِ الناسِ أدباً به ، وأقربهم مأخذاً منه ، علاّمةِ التراث العربي وباقعته ، والأديب العَلَمِ المُبْدع ، محمود محمد شاكر رحمه الله ، مع ما بين الرجلين من الفَرْقِ ، على ما يعرفه العارفون بالرجلين[1] .

● أقبل الرافعيُّ على الوجود شاعراً عظيمَ الطموح ، يتوثّبُ على آفاق الشعر توثّبَـهُ العارمَ، ويأخذ فيها أَخْذَ صانع مقتدر ، متوسلاً لذلك بوسائله الظاهرة والباطنة ، أعني بالموهوب والمكتسب ، وبالقَدْرِ المُتَاح لشاب غَضٍّ الشباب ، يَعْقِلُ نَـفْسَه ، ويُقْبِل على موادّه بهمةِ شبابه وحدّته ونفاذه .

كان في الثانية والعشرين فقط أو الثالثة والعشرين حينِ نشر الجزء الأول من ديوانه ، وكان قريبَ عهدٍ بمزاولة المنظوم مزاولة جادة ، وهو من عجائب سيرته في الأدب كما نرجو أن نُبَـيّنه فيما بعد ، وقَدَّمَ للديوان

(١) الرافعي يَتَـلَوّمُ على ما يكتبه ، ويصنعه صنعةً بيانية خالصة ، فيها الفكرُ والخيالُ وإحكامُ النسج ، مؤتلفاً مما يصنعُ أسلوبُـهُ الذي استقل به ، بائناً من أساليب العربية كلها على ما أسلفناه. والأستاذ محمود يذهبُ مذهبَ المطبوعين، وهو أشبه بالبحتري والمتنبي ، يَرْصُفُ ويُحْكِمُ ويتأنقُ مرتفعاً إلى الذّروة مرةً، ويتسلط على عبارته آخذاً ألفاظها أخذً جبارٍ مرةً أخرى، مطبوعاً متدفقاً جَزْلاً على كلّ حال. وله أسلوبٌ من الانتزاع ومن صنعة الفكر يظهر لقارئه من فَوْرِه ، ويظهرُ واضحاً مستبيناً حتى فيما يترجم.
ونَحْوٌ من هذا تجده للرافعي وللعقاد ، وهو من مَزِيّةِ الكبارِ من أصحاب الأساليب ، وعندنا أن العقاد منهم ، لاسيما بعد أن نضج واستحكم ، وتَخفّف من مطالب الصحافة اليومية ، المُتَحَيِّفةِ من الأساليب ما يعرفه كلُّ كاتب فيها مُضطر إليها. وبعضُ ما يترجمه العقاد أيضاً يبدو وكأنه هو كاتبه لا مترجمُه.
وقد شهدت الأستاذ محمود شاكر مرةً يتعجب من أسلوب الرافعي أبلغَ تعجبٍ رأيته منه قط. ولعلي أعود إلى هذا فيما بعد.

بمقدمة في الشعر ليس أغرب من مادتها ونَمَطها بالقياس إلى عُمْر صاحبها إلا سياقها التاريخي الذي جاءت فيه ، استخرجتْ عَجَبَ الإمام اللغوي إبراهيم اليازجي وإعجابَـهُ ، فكتب فيها كلمةً بليغةً دالة ، جديرةً بكاتبها وبِمَنْ كُتِبَتْ فيه .

كان يظن الديوانَ لأديبٍ مُتَمَرْسٍ شيخ ، وأن مقدمَتُه اقتباسٌ من دواوين الأدب القديمة ، فمضى يبحث عن ذلك في مظانّه ، ارتياباً منه بقدرة كاتب تلك المقدمة على مثل مادتها ونَمَطها ، فإذا هي لفتًى في الثالثة والعشرين ، وإذا هو قد كتبها ـ بمرأى من صديق له[1] ـ في ساعات معدودة لم يبارح فيها مجلسه ! فكتب يقول :

« . . . وقد صَدَّره الناظمُ بمقدمة طويلة في تعريف الشعر ، ذهب فيها مذهباً عزيزاً في البلاغة ، وتَبَسَّطَ ما شاء في وصف الشعرِ وتقسيمه وبيانِ مَزِيَّتِـهِ ، في كلام تَضَمَّنَ من فنون المجازِ وضروبِ الخيالِ ما إذا تدبرته وجدتَـهُ هو الشعرَ بعينه . . . »[2] .

فكذلك كانت المقدمةُ ، دَلَّتْ على منهج شاعرٍ ومادتِهِ وأسلوبه ، في زمن بعينه ، إلا أنها كانت إرهاصاً أيضاً بالكاتب الكبير المتفرد الذي سيكونُـهُ من بعد ، بمنهج الروح نفسِهِ ، ولكن بأسلوب وطريقةٍ آخرين .

---

(١) هو الأديب جورجي إبراهيم ، صديق شباب الرافعي ورجولته في طنطا ، وسنعود إلى ذكره بعدُ .

(٢) كان هذا في أواخر أيام الشيخ ، نُشِرَ ديوانُ الرافعي سنة (١٩٠٣) ونُشرت الكلمةُ في صيف تلك السنة ، وتوفي اليازجي سنة (١٩٠٦) . وكان الرافعي رحمه الله كثير الاعتداد بكلمة اليازجي هذه .
ويَجْري مع خبر اليازجي ما كان من شبلي شميّل أحدِ كبارِ شخصيات عصره ، فإنه قرأ مقدمة ديوان الرافعي (النظرات) حتى إذا فرغ منها قال : لابد أن تكون هذه المقدمة مترجمة !

• ومضى الرافعيُّ على غُلَوَائهِ في الشعر ، في السنوات القليلة التي تَـلَت ، وأخرج بقيةَ ديوانه الأول ، وصدراً من ديوانه الثاني (النظرات) .

وكان يرى نفسَهُ حينذاك فوق شوقي منزلةً في الشعر ، على حداثة سنه بالقياس إليه ، ومع الأمدِ البعيدِ بين فقر حياته الظاهر ، وغِنَى حياة شوقي ، بالذي يرى في نفسه من اقتداره على اللغة ، وبما لا نشك أنه كان يراه رؤيةً مُبْهمةً أو مستبينة ، أن له عالماً من الشعر ليس لشوقي مِثْلُه : نَحْوٌ من الإحساس بالوجود ، وغوصٌ وتغلغلٌ ونفاذ ، وشيءٌ آخَـرُ لم يكن مع شوقي حياتَهُ كلَّها قطّ[1] .

• ونَحْسَبُ أن أفقاً عظيماً غامضاً من آفاق الفن ، في الوقت نفسه ، كان يُسَاوِرُ قلبَ الرافعي ويتلامحُ لعينيه ، يَقِلُّ بإزائه كثيرُ المنظومِ الذي وُفِّقَ إليه .

---

(١) من عجائب الرافعي ، وهو من شواهد حَيْدَتِـهِ الباطنة ، واستعلائه على نفسه حين يكتب للتاريخ ، مقالُهُ النفيس الذي كتبه عن شوقي بُعَيْدَ وفاته (١٩٣٢) وأنزله فيه منزلته التي لم تزدها مباحث النقد الحديث إلا وَثاقةً وتمكيناً ، وبها رجع شوقي شاعرَ العربية في عصرها الحديث .
ففي هذا المقال نسي الرافعي أنه أَحَلَّ نفسَه في مرتبة فوق شوقي ذاتَ مرة ، حتى كأن ذلك لم يكن منه قط ، بل نسي أنه هو نفسُه كان شاعر الملك قبل سنتين فقط من وفاة شوقي؛ مات هذا كله في نفسه ، وبقيت الحقيقة الخالصة الغالية ، يَسْتأسِرُ لها أكابرُ الرجال ، يَعْلُونَ بها على عوارض أزمانهم ، ويؤدونها محضةً خالصةً للتاريخ .
ونحسب ـ تماماً على هذا المعنى ـ أن الرافعي ، في قرارة نفسه ، كان مطمئناً ، في منشآته ، إلى قَدْره في الأدب وقَدَره ، على النحو الذي بَـيّناه .
وقد استخرج هذا المقال في عصره دهشة الشعراء أولاً ، أمثال علي محمود طه الشاعر الكبير المجدد ، وكأنما رَفَعَ به الرافعيُّ الحجابَ عن أفق من التناول والنظر ، أقبل به على شوقي وشعر شوقي ، كان قراء العربية بمعزل عنه ، وكان غيباً مُحَجّباً حتى جاء الرافعي فكشفه .

وكما تتكشفُ الحُجُبُ في حياة الكبارِ في التاريخ الإنساني عن أقدارهم المُغَيَّبةِ شيئاً بعد شيء ، هكذا بدأ الرجل يتجه إلى أسلوب من البيان المنثور يُطابق عالمَهُ الباطن، تضيقُ عنه أوزانُ الشعر المعروفةُ وقوافيه: فيه الجلالُ، واتساعُ المَدَى ، واشتباك معانٍ وألوان ، يترادفُ عليها خيالٌ مُصَوِّرٌ ، وفكرٌ متغلغلٌ نَـفَّاذ ، وضربٌ من الوزن الخفيّ يَشِيْعُ في أعطافِ الكلام.

حتى إذا شَرَعَ أواسطَ سنةِ (١٩٠٩) في (تاريخ آداب العرب) كان نمطُهُ في الأدب والفن قد استقر له ، وخَلَصَتْ له الصورةُ التي سيُعْرَفُ بها بعدُ ، والتي ستهذبها الأيام ، متدرجاً بها في أطوار البيان ، لتحيطَ -بثراءٍ واقتدارٍ تامَّيْنِ- بدقائق المحسوس والمجرد ، وتعالجَ -بشدة الأَسْرِ نفسِها- ما لابَس الحياةَ ، وتغلغل إليه الفكرُ ، وهَوَّمَ فيه الخيال.

• وبقيت شعبةٌ من قلبه، يأوي إليها القصيدُ العربي الموزون، كان لا يزال يراجعُها في الحين بعـد الحين ، أليست الموسيقى ، وهي في الشعر الصحيح التام عنصرُهُ الفارق ، فَضْلَـةً من المعنى لم تُعبّر عنها الكلمات؟

• واستَنَّ الرافعيُّ في طريقه بعد ذلك ، ومضى على نهجه وأسلوبه ، وتقلّب في معقولات الأدب وأحوالِـهِ ومعانيه طوراً بعد طور ، وكأن عليه وَحْدَهُ عِبءَ أن يَـنْـقُلَ العربيةَ وآدابَها مرةً واحدة ، من حيث انتهت بها عصور فَـتَائها وقوتها وغِناها قبل قرونٍ كثيرةٍ خَلَتْ ، إلى زمن الناس الأخير ، فَيُلْبِسَها لَبُوسَها الأصيلَ والمتجددَ في آن ، تُقبلُ به على العصر بوجهها وبحداثته ، تأخذُ منه وتردُّ إليه ، مزيجاً كريماً محضاً ، نَقِيَّ العنصر ، أنيقَ المظهر والمخبر ، عظيمَ ثراءِ الظاهرِ والباطن .

فكذلك كان يصنع ، مع ما كان فيه من بأساء حياته الخاصة وشَظَفِها وخشونتها ، غَيْرَ ملتفتٍ إلى ما ارتكست فيه هذه العربيةُ قروناً كثيرة بين ذلك ، غَرَبَتْ فيه عن أهلها الأسبابُ التي بها تنهض الآدابُ والفنونُ أو

تسقط[١] ، مرتفعاً بقانون موهبته العظيمة فوق قوانين العصور .

• واستوى الرافعيُّ هكذا على ذروة سامقة من أدب العربية الكامل ، بجدِّهِ وأسبابِهِ ومواهبِهِ كلِّها ، وَجَلَتْ مُنْشآتُـهُ عن رجلٍ عَجَبٍ : كأنما أَمَّر لغةَ العرب وآدابَهُم على قلبه ، وما نُـقِلَ إلى لسانهم في عصره وقبل عصره ، يأخذُ من ذلك لِـفَـنِّـهِ مرة ، وللناقد الذي هو في بُرْدَيْ كل أديبٍ كبيرٍ مرةً أخرى ، ولمؤرخ الأدب الشامل مرةً ثالثة .

• إلا أن ذلك لم يَطُلْ ، ولم يَـنْـفَسِحْ له في مُدَّتِه ما يُـتَمِّمُ به بعضَ ما شَرَعَ فيه ، وتغلغلٍ فيه إلى أغوار بعيدةٍ من اجتلاء أسرار البيانِ العربي[٢] . ووافاه أجلُهُ المكتوبُ وهو أتمُّ ما يكونُ حكمةً ، ورقةَ قلب ،

---

(١) طموح الرافعي الأدبي العظيم هذا هو مَظِـنَّـةُ أن يُوغل في طلب المعاني أحياناً حتى يُغْمِض ، ولكنْ غموضه الذي هو من حسناته ، لا ذلك الذي يُـزْري به عليه شانئه ، أو يَـعْيا بعربيته ، أو يَـقْصُرُ بأسبابه عن تحصيل معناه . وحَسْبُه من المَزِيَّـةِ أن يَـرُوْضَ العربيةَ ـ التي هي بنتُ الصحراء عند بعضهم ـ على العبَارة عن غاية من أبعد غاياتِ الفكر والخيال .
ويبدو ذِكْـرُ (الغموض) كلما ذكر الرافعـي أشبـهَ شيءٍ بـ (فعـلٍ منعكـسٍ شَرْطيّ) عند من يذكره! كأنه (الجفاف) الذي يذكر حين يذكر أسلوب العقاد . وهو عجيبٌ من أحكامهم ، وأعجب منه تعليله بمنطقيته! يرون أنه جاف لأنه منطقي . . ! فيه جفاف المنطق وصرامته . . ! من أجل أن المنطق جاف صارم . . ! ألا يمكن في صِفَتِه ـ مكانَ ذلك ـ أن يكون جامعاً محيطاً لأن صاحبه عالم ، ودقيقاً محرراً لأن صاحبه عاقل ، وقريباً سهلاً ، لأنه متمرسٌ حاذق! هذا وكأن أساليب غيره ممن يستعملون المنطق ، ويديرون ما يكتبون على أحكامه ومقتضياته ، رياضٌ نَضِرَةٌ وجناتٌ غنّاء .

(٢) أفردنا ما كان من عمله في هذا الباب خاصة إبرازاً لجلالته وخطره؛ وإلا فإن فيما ترك من سائر آثاره ، فضلاً عما تبدد منها ، لشواهدَ عظيمة المغزى والدلالة على ما انتهى إليه في أدبه .

وإحاطةَ علم ، وسُمُوَّ بيان. فقضى وهو في السابعة والخمسين ، وكأنما هو فيما قُـدِّرَ له أن يَصنعَهُ في تاريخِ العربيةِ فكرةٌ عاليةٌ وبرهانُها ، فليس إلا أن يتقررَ ذلك حتى يغيب، إذ كانت الحكمةُ في تلك الفكرةِ وذلك البرهانِ ، لا في مَجْدِ الشَّبَحِ الزائلِ نَـفْسِه ، ولا في مبلغ ما يتركه في الفانية من آثار.

• فهذه كلمة غايةٌ في الإجمال في شخصية الرافعي العقلية والفنية ، وفي مَـنَازعه فيما أقبل عليه في حياته الأدبية ، ومبلغ ما آل إليه فيما نراه ، تدل عليه دِلاَلَـتَها العامة ، إذ كان هذا الكتاب الذي نقدم له خاصةً أقلَّ من أن يَدُلَّ عليه دِلالةً جامعة ، لغير ما سببٍ على ما ستراه.

وفي أدبه بعدُ وآفاقِ فكره ودقائق فنه ما يحتمل دراساتٍ كثيرةً جادةً مستوعبة: تُـعَيِّـنُ الجهة ، وتزيح الشبهة ، وترجع بالتفصيل بعد الجملة ، وتكشِفُ الخفيَّ الذي حجبه الظاهر ، وتُدني البعيدَ الذي قَصَّرَ دونَ غايتِهِ كلالُ الخاطر.

الـعـقاد: ملامـحُ شـخصيـة:

وقد كان السياقُ يقضي بكلمة أخرى في العقاد ، لولا أنه أَعْرَفُ الرجلين فـي عصره وبعد عصره ، وأوسعُهما دائرةَ قراء ، ولولا أنه قد كُتِب في حياته وفكره وأدبه ما يشبهُ أن يكون مكتبةً كاملة ، أُفْرِدَتْ فيها له كتبٌ مُطوّلة ، أسهم فيها كبار أصدقائه وأصحابه ، وخاصةُ تلاميذِهِ ومُحِبّيه ، وعامةُ الدارسين من المثقفين وأصحاب الأطروحات[١].

وقد تنفس العُمُرُ بالعقاد دهراً بعد الرافعي[٢] ، وخَرَجَ من كثير مما كان يَشْغَلُهُ في معترك الحياة العامة ومطالبها ونَـكَدها أحياناً ، وفَـرَغَ لجملةٍ من

(١) بعض ما خُدم به تراث العقاد جليل القدر عظيم الفائدة ، أرجو أن أعود إلى بعضه في غير هذا المقام.

(٢) توفي الرافعي سنة (١٩٣٧) وتوفي العقاد سنة (١٩٦٤).

مباحث الفكر والأدب العربيين ، اقترب فيها أشواطاً كثيرة مما كان الرافعي أَخْلَصَ له نَفْسَهُ ، إلا أنه صنع ذلك بأسلوبه ، وبانتحاءاتِ فكره ، وطريقته التي يقبل بها على الأشياء. وهذا إلى ما أسهم فيه من مطالب الفكر والأدب والثقافة في عالم العصر المتجدد.

وتميزت له بذلك كلِّه شخصيتُـهُ الفكريةُ التي عرفته بها الأجيالُ التالية ، فما يكادُ يُعرفُ من كثيرٍ من قديمه إلا ملامحُهُ العامة. وكان في ذلك خيرٌ وبركةٌ عليه وعلى عالم الفكر والأدب ، إذ كان عبثاً لا طائل وراءه أن تَـرُدَّ إلى الحياةِ ما فَـرَغَـتْ منه الحياة ، وما ساغ في زمن بأسبابِـهِ ودواعيه لا يسوغُ في زمن مختلفٍ أخر.

وبعضُ الشخصيات التي تكون مع الأزمنة إبّان انتقالِها وتغيّرِها تمضي مع هذه الأزمنة في جوانبَ تَقِلُّ أو تَـكْثُـرُ من مطالبها الحيوية ، وتتقدمُ بتقدمها ، فإذا ما انقضت تلك المطالبُ ، وتحوّلَ الزمانُ بانقضائها وتحقّقِها تحولَهُ المقصود ، تحولت شخصياتُـهُ التي من هذا الطراز تحولاً آخَرَ ، تلقاءَ غاياتٍ ومطالبَ أُخَر ، بحسب أحوالِ العصرِ الجديدةِ الناشئةِ ، وبحسب النوازعِ العميقةِ لتلك الشخصيات.

ولا يصادمُ مثلُ هذا التحولِ في شخصية كبيرة كشخصية العقاد ثوابتَ هذه الشخصيةِ وأصولَها العامة. ونَحْسَبُ أن الأصلَ الواحدَ من أصوله النفسية ربما لابس أكثرَ من صورةٍ في حياته العامةِ والعقلية ، وطالعَ الناسَ بأكثرَ من وجه ، دونَ أن يتغير في جوهره تغيراً يُحْسَبُ عليه. وهذا مطلبٌ جليلٌ دقيقُ المسلكِ في حياته العقلية والنفسية والعامة ، نرجو أن يستقل ببيانه وتفصيلِهِ موضعٌ آخر.

شيء من أحوال العصر ، وما في بعض مصادره من الآفة:

وبعد ، فما بنا هنا أن ننتصرَ لواحدٍ من الرجلين دونَ الآخر ، ولا أن

نعتذر عنه ، آثارهما نفسُها تصنعُ ذلك. وقد رَجَعَ الرجلان كلاهما تراثاً من تراث الفكر و الأدب العربيين، يَعْتَـدّ به المعاصرُ، ويَشُدّ به يَـدَه ، ويَحْرِصُ عليه. وعلى أن من عجز الرأي أن يَدْفَعُ امرؤٌ باللفظ المجردِ ليس معه من البَيّنة غَيْرُه، في نُصْرَةِ مذهبٍ يَذْهبُه اليوم ، ينقضُهُ عليه صريحُ الرأيِ في غد.

وقد أسقط الزمنُ كثيراً من تَعنّتِ المُحْدَثيـنَ ، ومن انـتصارهم لأنفسهم أو انتصارِ أشياعهم لهم ، في مذاهبهم التي ذهبوها ، بما يكون وما لا يكون.

بل نُسِيَتْ مذاهبُهم نفسُها ، ونُسِيَ ما قيل فيها من حَقِّ القولِ وباطلهِ ، ونُسِيَتْ أسماءُ كثرة ممن أسهم فيها ، وقد كانت ملءَ سَمْع الزمان ، فما يعرفُها إلا دارسٌ مُتَـتَـبّع ، آخِذٌ نَـفْسَهُ بتحصيل مادة ما كان وتحصيلِ أسبابِه في مَظَانّه؛ على ما في الظَّفَر ببعض ذلك من المشقةِ والعُسْرِ الشديدين ، ولا سيما في مجلاتِ تلك الأيام فضلاً عن صحفها ، وفي المشهور من ذلك فضلاً عن المغمور؛ وفضلاً عما دَرَسَ من الكتب فلا تكاد تُصِيبُـهُ في مكتبة خاصة ولا عامة.

ونَحْسَبُ أن بعضَ مادةِ ما كان قد عَدِمَ البَتَّـةَ بموتِ أصحابِه ، ممن أسهم بنفسه فيه ، أو كان شاهدَ عِيَانٍ له ، عارفاً ببعض خبره وبعضِ بواعثه مما لم تشتمل عليه صحيفةٌ أو مجلةٌ أو كتاب[1].

---

(١) ذهب بعضُ خبرِ الرافعي مع ذهاب أهله فلا سبيل إليه: مع جورجي إبراهيم صديقِ شبابِه ، فضلاً عن غيره من عامة أصحابه ومعارفه ، ومع العريان مما لم يثبته في (حياته) ، ومع الأستاذ محمود محمد شاكر ، مما منع منه أو من أكثره.

وكان العُريان شديدَ القُـرْبِ من الأستاذ محمود ، وكأن يَـألَـفُه حين كان في منزله بشارع السبق بمصر الجديدة ، فأي تاريخ من تاريخ الأدب الحديث ، ومنه تاريخ الرافعي نفسه ، كان يتردد بين الرجلين.

بل إن في هؤلاء من كان يَكْتَتِمُ ما في نفسه فلا يبوح به ولا يظهره: توقياً واحتجازاً، أو إماتةً لما يُمِيتُ الخاطرَ من باطلِ القولِ ومُنْكَرِه، أو غَيْرَ ذلك.

وقد أدركتُ الأستاذَ محمود محمد شاكر رحمه الله منذ نَحْوٍ من ثلاثين عاماً وهو يأبى إباءً شديداً من أن يتكلمَ في الرافعي، مع كونـهِ أعلمَ الناسِ به، وأجدرَهم لذلك أن يتكلمَ فيه، ومع عِرفانِ الدارسينَ أنه هو مَعْدِن ذلك ومَظِنَّتُـه؛ فكان يأبى من ذلك أشدَّ إباء، إلاّ أن يُغْلَبَ على بعضه بصدقِ طَلَبِ من يطلبه منه وإلحافِـهِ فيه، أو أن يجيءَ من تِلْقاء نفسه عَفْواً في بعض كلامه، وفي الفَلْتَةِ والنُّدْرَةِ ما كان ذلك.

أصحـاب الرافـعي والـعقـاد:

وههنا بعدُ موضعٌ للقول في ناحيةٍ من تاريخِ ما كان بين الرافعي وأصحابه من جهة، والعقادِ وأصحابِه من جهة أخرى[1]، مما أعانت عليه مشاهدةٌ أو سماع، وشهد له صريحُ نصٍّ أو مأثورُ خَبَر؛ نرجو أن يقف به القارئ المعاصر على أن ما كان بين القومِ لم يكن ليلاً طامساً لا تُشْرِقُ له شمس، ولا حرباً بين النور والدَّيْجور، لا حياةَ لأحدهما إلا بنسخ الآخر، لكنها كانت خصومةً فيها من كلِّ شيء، وكان فيها من قوةِ الأنْفُسِ وضَعفِها، وَحَقِّها وباطِلها، قبل كل شيء.

وهي دائرةٌ إنسانيةٌ إذن، تتداخلُ فيها الظلالُ والألوان، أصحُّ ما فيها من الفِكْر أنه هو طِبَاقُ الواقع. هكذا يعلمُهُ أصحابُه، وهكذا نرجو أن نؤديَّه إلى الخالفين.

فمن صوابٍ خالصٍ لا يَـلْتَبِس، يأخـذُه آخِـذٌ أو يَـدَعُـهُ، آخـذاً بحـظّ

(١) ونَحْـوٌ من هذا يقال فيما كان من القـرب القريب بين طـه حسين وبعض كبار أصحاب الرافعي، نمسك الكلام فيه إلى موضعه إن شاء الله.

نَـفْسِهِ حين يُقْبِلُ عليه ، ظالماً لها حين يُعْرِضُ عنه ، لا ينفعُ في مُدَافعته حِجَاجٌ باللفظ ، ولا تمويهٌ من تمويهاتِ الفِكْرِ .

أو نَـزْغَـةٌ من نَـزَغاتِ الفِكْرِ والرأي ، يَـتَـزَيَّنُ فيها الهوى بكلّ زينة ، وتُمِدُّها النفسُ الطموحُ بكل حيلة .

أو حالٍ من أحوال العصر يَغْشَى أفئدةَ الناسِ بسلطانه ، وَيَلْبِسُ عليهم مذاهبَهُمْ ومسالكَ أنظارِهِمْ ، فعسى ألا يتبينَ الرجلُ حقيقةَ ما يكونُ فيه حتى يفارقَه ، وعسى ألا ينفعَهُ قبل ذلك ذكاءٌ ولا رأيٌ ولا تسديدُ نظر .

فإذا ما انقضى ذلك كلُّه ، ونَسَخَتِ الأيامُ الأيامَ ، واستكانت الفَوْرةُ ، وراجع الناسُ حقائقَهم التي فُطِروا عليها وتمرسوا بها ، وتراجع إليهم من حَيْدَتهم ما ألوت به الحَمِيَّةُ والعصبيةُ ، فهنالك تستردُّ الصورةُ الإنسانيةُ رُواءها النبيل ، وتتراجعُ إليها ألوانُها ومعارفُها الكريمةُ الوسيمةُ ، ويعلو الرجلُ بالأصيل الذي في نفسه فوقَ الزائلِ العارضِ .

محمـود محمـد شـاكـر والـعـقـاد(1) :

فأولُ ما أذكرُ من ذلك أن الأستاذَ محمود محمد شاكر ـ ومنزلتُـهُ من الرافعي ومنزلةُ الرافعي منه ما قد عَرَفْتَ ـ كان معجباً بالعقاد إعجابَ مِثْلِهِ بمثلِهِ. وقد عَجِبَ أمامي مرةً ممن يريدُ أن يتكلمَ في الرجلين كلامَ مُوَافقٍ أو مُخَالف وليس معـه من الآلـة ما يفي بذلك ، وأنـه رب متعـرضٍ للرافعـي

---

(1) كان يمكن أن نذكر أولاً صلة ما بين الرافعي والمازني ، حميمِ العقاد وتوأمه الثقافي والروحي حقبةً من الدهر ، والمقدّم لديوانه الذي نقده الرافعي في هذا الكتاب. وهي صلةٌ بليغةُ الدلالة بالَغةُ الغرابة ، لا سيما إذا وقفتَ على بعض أجزائها وتفاصيلها ؛ وعلى أنها غرابة لا تستغرب من الوجه الذي نحاوله في هذا المقام ، ونلتفت فيه إلى ما في الحياة الإنسانية من تداخل المعاني والظلال. ونحن نرجو أن نذكر هذه الصلة في موضع آخر بأظهر مما يمكن أن تُذكر به هنا وأتم.

والعقاد ، واضعٍ نفسَهُ موضع الحَكَمِ بينهما : «ليس من الرجلين في شيء» .

وكان عند العقاد من التقدير للأستاذ محمود ما ينبغي له في مِثْلِ ثُقُوبِ عِلْمِهِ وجلالةِ محلِّه . وأحسَبُ أن أول ذلك قد كان بكتاب الأستاذ محمود عن (المتنبي) الذي أخرجه (المقتطف) في عدده الخاص في ألفية المتنبي سنة (١٩٣٦) ، وانتزع من إعجاب عامةِ قراءِ العربيةِ ما قَلَّ أن وقع مِثْلُه لكتاب .

ثم كتب العقـادُ في (الرسالـة) بـعد وفـاة الرافعي سنة (١٩٣٧) ، وكتب فيها محمود شاكر في الـردّ على من رَدَّ على الرافعي بعد وفاته ، وبقي يكتب فيهـا فـي عامـة مطالبـه بعد ذلك ، فتقررت منزلتُـهُ في الأدب ، وعَـرَفَ رسوخَـهُ في العلم أثباتُ أهلِ العلم ، ومنهم العقادُ رحمه الله ؛ فكـان كثيرَ التسليمِ لـه ، مـع ما يعـرفُـهُ من مودّتِـهِ البـاطنـةِ لــه وإعجابِـهِ بـه .

وقد بلغَهُ مرةً أن للأستاذِ محمود نَـقَدَاتٍ ومؤاخذاتٍ على كتابه (ابن الرومي) بَلَّغه ذلك بعضُ شبابِ تلاميذه ، فقال له بدارجته ما مُؤَدّاه : «يَـفْعَلُ بالكتاب ما يشاء» .

وأَحْسَـبُ أن خبـرَ هـذا عند الصديـقِ الأديبِ العـالمِ الثَّـبْـتِ الأستـاذِ عبد الحميد بسيونـي حفظه الله ، بل أحسبُ أنـه هو صاحبُـه ، وهـو ناقـلُ ما نقل بين الرجلين[1] .

---

(١) ويذكر مع هذا ، وهو من بابَتِـهِ، ما حكاه الدكتور محمود محمد الطناحي عن الأستاذ عبد الحميد نفسه ، من أن العقاد كان يقول: إن مفتاح شخصية الكاتب أو الأديب هو روح الفكاهة عنده ، فلما سئل عن حظ الأستاذ محمود شاكر منها ، قال: (OVER) أي أن حظه منها عالٍ زائد.
فهذا يؤيد أن ذكر الأستاذ محمود في مجلس العقاد معروف مأنوس.
وخبر العقاد الأول ، إن لم أكن واهماً في نقله ، عظيم الدلالة على صفاء نفسه البالغ ، وعلى اهتزازها لكل معنى كريم.

وينبغي أن تكون هذه المودةُ وهذا التقديرُ مُتَعارَفَيْنِ بينَ أصحابِ العقاد ، في حياته وبعد وفاته ، وقد شهدتُ أنا آثارَه فيما بعد.

بيت محمود محمد شاكـر مثابـة لأصدقـاء العقاد وتلاميـذه ، وندوتـه نـدوتهم بـعد رحيل أستـاذهم الكبير[١]:

فممن رأيتُه من زوار الأستاذ محمود في مجالسه الحافلة في أوائل السبعينات الكاتبُ الكبيرُ والمؤرخُ والناقدُ الأستاذ علي أدهم رحمه الله ، وهو من كبار أصدقاء العقاد وأصحابه.

ومنهم الشاعرُ والكاتبُ والأديبُ عبد الرحمن صدقـي ، وهو أحـدُ من تولى إدارةَ دارِ الأوبـرا بالقاهرة ، ورثاهـا بكلمة غريبة غداةَ احتراقِهـا سنةَ (١٩٧٣)؛ شهدتُـهُ عند الأستاذ محمود غَيْـرَ مَرّةٍ ، وشهدتُ قربَـهُ منه ، وانبساطَهُ في مجلسه ، بحيويته الشخصيةِ العجيبةِ، وضحكاتِـهِ المُجَلجلة (التي تخفي حزنه الكبير). وهو أيضاً من كبار أصدقاء العقاد وأصحابه.

وكلاهما رحمهما الله من أعلام الفكر والأدب في العصر الحديث.

ومن هذه الطبقةِ غَيْـرَ أني لم أره ، أو أنه لم تتفق لي رؤيتُـه ، الدكتور زكي نجيب محمـود ، ومنزلتُـهُ فـي الأدب والفـن منزلتُـه ، فـوقَ قَـدْرِهِ المعروفِ في الفكـر والفلسفـة ، غير أن له فـي (القـوس العـذراء) قصيدةِ

---

(١) مع ندوتهم الجامعة التي استأنفها الأستاذ عامر العقاد بعد وفاة عمه ، ثم استأنفها بعد وفاته تلاميذ الأستاذ العقاد. وقد شهدت قبل نَحْوٍ من ثلاثِ سنوات ، في حياة الأستاذ محمود شاكر ، أمسيةً شعريةً في ندوة من هذه الندوات ، كان رئيسها الأستاذ شوقي هيكل.
وقد وقفت قريباً على أن لمحبي الرافعي ندوةً في طنطا ، بلد الرافعي الذي شهد مَغْدَاه ومَرَاحَه ، غير أني لم أقف من خبرها على كبير شيء:
نــأتِ الــديــارُ بــأهلهــا   وبعلــم مــن سكــن الــديــارا

الأستاذ محمود المعروفةِ كلمةٌ غايةٌ في الجمال ، تُـعَدُّ هي ذاتُها أثراً من روائعِ آثارِ الأدبِ والفن. ولعلها أولُ تنويهٍ مستقلٍّ ذي شأن بالقصيدة ، بعد تنويه الأستاذ عادل الغضبان بها في مجلة (الكتاب) نَفْسِها حيثُ نُشِرَت القصيدةُ أولَ مرة[1].

ثم كان من زوار الأستاذ بُعَيْدَ ذلك الأستاذ عامر العقاد رحمه الله ، ابنُ أخي الأستاذ العقاد ، رأيتُه عنده مراتٍ كثيرةً لا تحصى[2].

ومنهم الدكتور عبد الفتاح الديدي ، الناقدُ المعروفُ ودارسُ الفلسفة ، وهو من كبار من كتبوا عن العقاد من أصحابه كتباً على حيالها.

ومن أصحاب الأستـاذ محمود الآخذين عنـه ، وقـد كانوا قبـل ذلك من شباب أصحاب العقاد غيرُ واحد ، منهم الأستاذ عبد الحميد بسيوني ، وقـد رأيتَ خبره آنفاً، صَحِبَ الأستاذ وقرأ معه صدراً صالحاً من العلم[3].

---

(١) ثم أفرد لها الدكتور إحسان عباس فيما بعد دراسة جامعة مستقلة.

(٢) وكان قبل زيارته له ، أو معها ، يذكره في كتبه ذكراً فيه مودة.

(٣) قرأ معه (تفسير الطبري) حين كان ينشر أجزاءه تباعاً في (دار المعارف) وقرأه معه ابنُ أخيه الأستاذُ الجليل عبد الرحمن شاكر الكاتبُ المعروف ، وشهد ما شهد من مجالس الأستاذ الأدبية ، وكانت في عنفوانها أيام ذاك ، مع رهط من أكابر شيوخ الفكر والعلم اليوم.
ومن آخر ما رأيت الأستاذ عبد الحميد في منزل الأستاذ محمود مقامٌ اتفقت فيه واقعةٌ من الغرابة بمكان.
كانت للأستاذ محمود مائدة منصوبة في غداء كل جمعة ، يحضرها من حضر من أصدقائه وذوي قرابته ، ومن عسى أن يكون طارئاً عليه من ضيفٍ وافـدٍ إلى مصـر أو مقيـم. فقرع البـاب مرة أثنـاء الغداء ، وكان الدكتور الطناحي حاضـراً يـوم ذاك ، فهتف بغتـةً بلا مقدمـات ، ولا علم سابق كان يعلمه: عبد الحميد!! وإذا عبد الحميد والله بالباب ، وكان قادماً لتوه من الكويت بعد غيبة طويلة عن القاهرة. =

ومنهم الشاعر الباحث الأستاذ الحساني حسن عبد الله ، صحب الأستاذ سنوات كثيرة ، وقرأ معه وباحَـثَـهُ وسمِعَ منه .

ثم تفرقت بهم السبلُ بعد ذلك في آفاق الحياة ومطالبها وغريب أحوالها .

وممن رأيت من شباب أصحاب العقاد وتلاميذه ، المقبلين على الأستاذ محمود والآخذين عنه[١] الأستاذان الصديقان الباحثان أحمد حمدي إمام[٢] ومنصور مهران كمال الدين ، والأستاذُ الشاعر شوقي هيكل ، حفظهم الله

= وكانت جلسة حافلة بعد ذلك ، كان الأستاذ محمود أكثر من فيها توقداً وحضورَ ذهن ، وكان في السادسة والثمانين ، قبل وفاته رحمه الله بسنتين . ثم رأيته في المستشفى الذي توفي فيه الأستاذ في مرضه الأخير ، قدم من الكويت عائداً له ، محبةً خالصةً وبراً . نُـقَيِّد بهذا طرفاً من التاريخ ، متضمناً ما شاء الله من الشمائل الإنسانية الحسان .

(١) نريد بالأخذ مطلق السماع من الشيخ دون القراءة المتعينة عليه . ولا يمتنع أن يكون مع السماع قراءة معلومة في كتاب بعينه أو أكثر . وبهذا المفهوم يَسُوغُ مِثْلُ قولِ القائل : تلاميذ العقاد ، فلا يراد منه أكثر من أن تلميذه حضر مجالسه وتخرج بها وبكتبه ، دون أن يكون ضرورةً قد قرأ شيئاً عليه .

(٢) بل كان الأستاذان الحساني حسن عبد الله وأحمد حمدي إمام في اللجنة التي أشرفت على إعداد الكتاب التذكاري المهدى إلى محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين (١٩٠٩ ـ ١٩٧٩) والصادر سنة (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م) باسم (دراسات عربية وإسلامية) . وكان معهما في لجنة الإعداد ، إلى إسهامه في مادة الكتاب العلمية ، الصديق خبير التراث العربي والمؤرخ الدكتور أيمن فؤاد سيد . وكانت للأستاذ شوقي هيكل نفسه ، وهو من أعضاء اتحاد الكتاب بمصر ، مشاركة في الكتاب بقصيدة أحاطت بخلال الأستاذ ومآثره ، جعل عنوانها : (في عرين الحب والعلم والجلال) دراسات : (٦٣١ ـ ٦٣٣) .

ونفع بهم. وعلى أنهم من قدماء من رأيت من أصحاب الأستاذ ، وهم آخِرُ من أذكر في هذا المقام.

هـذا الـكـتـاب:

طارت للكتاب شهرةٌ واسعةٌ في دوائر الأدب والنقد منذ نشر قبل سبعين عاماً ، بشهرة طرفيه: الرافعي والعقاد ، ثم قلّت نُسَخُه بعد ذلك في أيدي طلابه والعارفيه.

وعَلِقَ به صيتُ كتابٍ (سيء السُّمعة) ، وقد كان تخافت بهذا أناسٌ وعالَنَ به آخرون ، ثم رجع سحابةً غامضةً تُطيفُ به على الأيام.

وائتلف عليه ، بلا اتفاق ، خصومُهُ وأشياعُهُ ، وتناصرت عليه مُضْمراتُ الأنفس وظروفُ الزمان[1].

وفعلت المجاملةُ فِعلَها: مجاملةُ العقاد وقرائه في حياته ، ومجاملةُ أصدقائه بعد مماته ، فما يتحدث عن الكتاب أصدقاؤه ولا أثباتُ نقاده إلا على استحياء؛ رأوا فيه جوهرةً كريمة لابسها من مُرِّ القول ما لا يشاكلها ولا يشاكلُ صاحب الكتاب[2].

---

(١) كان العقاد حين كُتبت المقالات كاتب (الوفد) الأول ، وكان الوفد هو الأمة ، أو هو سوادها وجمهورها؛ فكان الطعن عليه ، حتى في خاصٍّ من أمره كمَلَكاتِهِ وقُدُراته في الأدب والفن ، خروجاً على الأمة ، ومروقاً من الوطنية. وقد قرأت المقالات مع ذلك على نطاق واسع ، وراجت (العصور) بسببها رواجاً كثيراً ، يَسَّرَ أن تُخرج تلك المقالات في أعقاب ذلك مجموعة في كتاب. ثم خرج العقاد على الوفد بعد ذلك . . ! وكانت للرافعي معه جولة أخرى.

(٢) ذهب هذا المذهب غيرُ واحدٍ من كبار أصحاب الرافعي ، وذهب إليه مِمَّنْ تأخر زمانُـهُ عنه الناقدُ الكبيرُ والشاعرُ الأستاذ كمال النجمي رحمه الله ، وكان كثيرَ الاعجابِ بالرافعي ، مع إعجابه بالعقاد ، وكان =

ومكّـنَ لهذا قِلَـةُ نُسَخِهِ في الأجيال التي تلت ، فما تُـتَصَـوَّر حقيقـتُـهُ إلا من وراء ظلال .

• والأمرُ بعـدُ أهونُ من ذاك ، والقولُ فيـه أيسر وأظهرُ ، وليس إلا أن يضعَ المرءُ نَفْسَـهُ موضعاً من نفسِهِ ومن حقائق مطالبه ، ثم هو مُخَلًّى له من بعدُ في أيِّ سبيليه أخذ .

والأسبابُ التي بها يقبل القارىء على الكتاب ، منصفاً في إقباله ، وبلا حرجٍ في ذلك كثيرٍ ولا قليل = تَـتَنزلُ عندنا منزلةَ البدائهِ والمُسَلَّمات ، وعندَ كل قارىء جادٍّ يقرأ ليعلم ، فَـتَخْلُصُ له بجِدّه وبما عَلِمَهُ شُعبةٌ من الحق لا من الهوى ، فبالحق الذي خَلَصَ له يَحكُم ، وبه يجتبي إليه صالحَ القولِ ، ويَـطْـرَحُ مرذولَهُ وفاسده .

= كريم الخلق ، رَضِيَّ النَّفْسِ ، رقيقَ الحاشية ، فكان من رأيه رحمه الله أن يُجَرَّدَ ما في الكتاب من النقد، دون ما لابسه من سائر أغراضه ومعانيه .
ونحن نرى هذا من جهة ، ونخالف عنه من جهة أخرى :
نـراه ونصـدقـه من أجل أنّـا نرى أنه هو الأصل في كتابة الكاتب حين يكتب ، بل هو الأصل في سلوك الإنسان كله ، في حال الكره وفي حال الرضا ، وأن الأشبهَ به والأكرمَ له أن يُنْصِفَ من نفسه كما يُحِبّ أن ينصفَه الناسُ من أنفسهم؛ نعم؛ وكرامةٌ للرافعي في الوقت نفسه أن تتأخر رتبةُ بعضِ ما يكتبه عن بعض .
ونُـخَـالِـفُ عنه من قِبَـلِ أنه وثيقة من الوثائق الأدبية في العصر الذي كُتب فيه؛ ومن قِبَل أنه بجملته وثيقةٌ لا غنى عنها في درس الرافعي نفسه إنساناً وأديباً ، وتَبَيُّنِ ظلالِ شخصيته في أحوالها كلِّها . وهذا فوق أنّا لا نبالي ، ونرجو ألا يبالي القارىء ، لا في هذا الكتاب ولا في غيره ، بكل ما يَغْمِطُ حقاً أو يَرْتكسُ في هَوًى ، خالصاً الصوابُ على كل حالٍ لأهله ، حيث استقلّ بهم فريق ، أو احتازتهم إليها نِحْلَة ، أو تناءت بهم دار .

وهذا عامٌّ لا شُبهةَ فيه بالقياس إلى كل قارىء في كل زمان ، أَوَلَيس الأصلُ في إنسانية الإنسان أن يكون في أمره كلِّه كذلك؟

قـدمـاء قـراء الكتاب ومحدثوهم واستقـواء الملكـة الناقـدة بكرور الأيـام :

إلا أن ههنا أشياءَ هي أَدْخَلُ في حال هذا الكتاب خاصة ، وفي حال قدماء قرائه ومُحْدَثيه ، لا تزدادُ على الأيام إلا ظهوراً وانكشافاً ، يَخْلُصُ بها جوهرهُ ، وينتفي عنه ويسقط من تلقاء نفسه كلُّ ما أخرجته الحفيظةُ ، أو أَنْشَبَ فيه الوهمُ؛ يطرحهما جميعاً قارئه العارفُ الجاد ، الطالبُ للصواب وَحْدَه ، غَيْرُ المتتبعِ للعَثَرات .

• فمن ذلك أن القارىءَ المعاصر بَنَجْوَةٍ مما كان يُطيفُ بقارىء الكتاب القديم ، ويَستبدُّ بجانب من طاقة فكره ونفسه ، كان جديراً أن يرتفق به في حُكْمِهِ على ما يحكُمُ عليه ، وفي قدرته على أن ينتفع به؛ أَحَلَّهُ هذا المحلَّ مُشَايعةٌ في موضعٍ مكينٍ من قلبه لرجل أو مذهب ، لا يَعْرِفُ حقيقَتَها ولا مبلغَ سلطانِها إلا عارفٌ بتلك الأيام .

ومن حالِ المحبِّ أنه (يتماهى) مع من يحب ، أي يتوحدُ بالعاطفة معه ، فإذا ما عَرَضَ له عارضٌ فيه شَبهةُ ضَيْمٍ لمن يحب انتصر له ، وما به إلا أن ينتصر لنفسه . وهذا من مَداخل الغلطِ الخفيةِ إلى النفس ، وهو من غرائب النوعِ الإنساني ، ومن وجوهِ ضعفِهِ المفطورةِ فيه . ولو كان أصلُهُ الذي يَصْدُرُ عنه الصوابَ نَـفْسَهُ ، لا أشباحَهُ الحاملةَ له من الناس ، ما شُبِّهَ له فيه ، ولانتصرَ له حيث كان ، وأضافه إلى من نَطَق به ووُفِّقَ إليه .

ولعلي أرجعُ إلى حديث الأستاذين محمود شاكر والعقاد رحمهما الله ؛ فأحدثك حديثَ نسخةِ الأستاذ محمود من كتاب أستاذه وصديقه الرافعي ، وما كان له فيها من التصويب والرأي ، وأني أحسبُ أن هذا قد نُمِي إلى

العقاد ، نَمَاه إليه صديقٌ لهما جميعاً ، فكان من أسبابه العميقةِ لانعطافه إليه[1].

خصلةٌ أخرى من خِصالِ النفسِ الإنسانية ، مشهودةُ الآثار في كل زمان ، تأتلفُ فيها الفطرة القويمةُ وما فيها من معنى الشكر ، وغريزة الدفاع عن الذات ، تَهَشُّ معهما إلى من ينافح عنها ، ويُظهر من حقها.

• ومن فَرْقِ ما بين قارئيه القديم والمُحْدَثِ أن هذا القارىءَ الحديث أكثرُ علماً من سَلَفه ، وأبصرُ بمواقع الصواب ، لاتساع المَدَى أمامه بكثرة المبذول من مذاهب الشعراء والنقاد ، وكلامِ أهل العلم والفن في كلّ علمٍ وفن.

وباتساع العلم ، مع صدقِ التَّوَجّه ومع جَوْدة النظر ، يَتَرَشّح طالبُ

---

(١) كان العقاد مرهف النفس إلى حد بعيد ، خلافَ ما يبدو لأول وهلة من شدته الظاهرة وصرامته. ولو لم نعرف هذا بالنص من أصحابه لعرفناه بالنص وبالتأويل من آثاره. قال من أبيات محكمة تامة الدلالة على خلائقه ، جعل عنوانها: نحن وزماننا ، إلى المفكرين:

إذا استصعبت نفسي وضاقت فِجاجُها
ولاحت لمرأى العين كالجبل الوَعْرِ

فلا تنكروا منها جفاءً ووحشةً
ولا ترجموها بالقبيح من الكِبْرِ

فتلك ظلالُ الناسِ فيها ودونها
طبائعُ كالماءِ النَّمِيْرِ إذا يجري

ولولا صفاء الماء ما عَلِقَتْ به
مَشابِهُ من أوعار شطآنه الغُبْرِ

(ديوانه: ٢٥٨ ، طبعة المقتطف والمقطم: ١٣٤٦ هـ ـ ١٩٢٨ م)

لا جرم كان صادق التأثر والاستجابة لكل معنى فيه مودةٌ وإنصافٌ له ، أَوَليس هذا ـ مرة أخرى ـ هو الأصل في الخلائق الإنسانية ، والأشبه بإنسانية الإنسان؟

الحق فيما يُـزَاولُـهُ لِدَرْكِ الحقّ ، فإذا ما أدركه قضى به ، وحكم حكمَهُ المبرأَ من الهوى ، فَـزَكَتْ به أنفسٌ ، وذَكَتْ فُهوم .

قيمـة الكتـاب ووجـوه الانـتـفاع بـــه :

• والكتابُ بعد كل هذا ، بأطرافه ومقدماته وما اشتمل عليه ، فصلٌ من فصول الأدب الحديث ، لا بد للدارس والمؤرخ منه .

• وهو فصلٌ بارزٌ من فصول أدب الرافعي ، وشاهدٌ دالٌّ بليغ الدِّلالةِ على رسوخ تكوينه العلمي في كل ماله صلةٌ بالأدب وموادّه وأدواته ، فضلاً عما سوى ذلك من أنحاء الفكر ووجوهِ النظرِ والعرفان .

• ثم هو في فن من النقد نموذجٌ من أعظم نماذجه قديماً وحديثاً ، بمعزلٍ عن لغته التي كُتب بها ، والظروف والأسبابِ التي لا بست وضعه وتأليفه . ارتفع فيه الرافعيُّ ، وفي نظائرَ له أُخَر ، إلى أفقٍ كاد ينفردُ فيه بين معاصريه ، ولـم يَـكَدْ يضارعُهُ فيه أحد ، إلا ما كان من تلميذه وصديقِهِ العلامةِ محمود شاكر رحمه الله ، في غير عملٍ من أعمالهِ المنشورةِ وغيرِ المنشورة ، وفيما أخرج من نص أو نَـفَـذَ إلى فكر .

• ونَـعْـرِضُ ههنا ، تماماً على ما قدمناه ، لأشياءَ تتصل بالكتاب من غيرِ وجه ، نرجو أن يستضيء بها شيئاً بين يدي قارئه المعاصر . نقتضبُ القولَ فيها اقتضابـاً؛ إذ كان تفصيلهـا الجامعُ واستيفاؤها على وجوههـا أكثـرَ جـداً من أن يتـسعَ لـه ويحتملَـهُ تـقديمٌ مجملٌ كهذا التقديم. فوق ما في استدعاء تفاصيلها الآن ما فيه من التعنت وإثارة الحفائظ[1] ، وهو

(١) هذا صحيح في هذا المقام خاصة ، فإذا ما رجع الدارس إلى التأريخ الشامل للقضية لزمه من الإحاطة بالتفاصيل واستيفاء الأصول ما لا يكون التاريخ تاريخاً إلا به. وتستأخر الحفيظةُ حينذاك ارتهاناً لمنهج الفكر وتَـكَرُّم النفسِ في آن.

ما تحاميناه بجهدنا في هذه السطور، ورجونا أن يتحاماه كلٌّ من يقف عليه[1].

ومادةُ مِثْلِ هذا التفصيلِ الجامعِ موفورةٌ مشتبكةٌ مترامية، بعضُها مُعْرِضٌ قريب يعرفُه كلُّ أحد ، وبعضُها ناءٍ قَصِيٌّ. وهو معروفٌ بالنص عليه مرة ، وبالنظر والاستنباط مرةً أخرى ، وبالتأليف والتقريب وضمِّ شيء إلى شيء مرةً ثالثة.

وهو مُفَرّقٌ في مُدَوَنات العصر على اختلاف فنونها وأنواعها ، وفي مأثوراته الشفوية ، وجدُّ قليلةٍ هي الآن. وهذا فوق أن بعضَها قد هَلَكَ البتةَ برحيل أصحابهِ كما أسلفناه ، فما إليه من سبيل.

ثم هذا الذي نذكره: بعضُهُ معروفٌ متداول ، وبعضُه يقفُ عليه عامةُ قرائه لأول مرة فيما نحسب.

وجـوه الـقول فـي الـكـتـاب:

• فنقولُ في تاريخ الكتاب وسياقه ، وعنوانه ، ونسبته ، ومادته ، ولغته ، باقتضابٍ في هذا كلِّه كما تقدم.

---

(١) لا نريد بهذا خُلَصَـاءَ العقـادِ وأثباتَ أصحابـه ، ومن إن لم يَـقُـلْ بعلم وَسِعَـهُ الصمتُ ، فَحَفِـظَ الحُـرْمَتـين ورَعَـى الـذِّمَـامين: حُـرْمـةَ صاحبه وذمامَه ، وحُرْمَةُ العِلْمِ وذمامَه. وثَمَّ وَجْهٌ آخَرُ نراه قريباً سهلاً على من أَخَـذَ نَـفْسَـهُ به ، وفحـواه ، في العلائق الإنسانيـة ، التحقـق بالنَّصَفَـةِ وصدق المخالطـة ، فأنـت تـؤدي إلى صديقـك حقَّـهُ إذا صَـدَقْـتَـهُ ، وتُـنَـحّي عنه العيبَ ، وتَـكْشِفُ الأذى.

ومن أعجب ما وقفنـا عليـه وأكرمـه ، لا فـي قلـة الجزع من تنبيه المنبه على الغلط والدال على الصواب حَسْبُ ، بل في طلب ذلك من أهله وشكرهم عليه ونسبته إليهم حين يدفعونه إليه = ما كان من الأستاذ العلامة محمود محمد شاكر رحمه الله ، صنعه في غيرِ كتابٍ من كتبه ، ورأيناه منه عياناً مراتٍ كثيرةً لا تحصى.

تصدير

خبر الكتاب:

ينعقد بالكتاب وما اتصل به فصلٌ هو أشهرُ فصولِ النزاعِ الطويل الذي شَجَرَ، بأسبابه المختلفة، بين الرافعي والعقاد: كفاحاً مرة، وغمزاً وتعريضاً مرة أخرى؛[1] وبقي نحواً من عشرين عاماً، فلم ينته إلا بوفاة الرافعي عام (١٩٣٧). بل إنه رجع عَلَماً على هذا النزاع، فلا يكاد يُذكرُ أحياناً من فصوله غيرُه، إذ كان آيةَ تحاملِ الرافعي عند قوم، يغتمزون به عليه، وآيةَ إحسانِهِ واقتداره عند آخرين.

• والكتابُ في الأصل كلماتٌ مرسلةٌ لا فصولٌ مرسومةٌ من كتاب. بل هي لا تبلغ أن تكونَ مقالاتٍ من الطراز الذي كان يُجَوِّدُه الرافعي، ويَحْشُدُ له من المادة ومن وجوه الرأي ومن صنعة البيان ما يكاد كلُّ مقالٍ يكون به كتاباً على حياله؛ إذا أنت فَصَّلْتَ مُجْمَلَه، وفَرَّعتَ على أصوله، وبَيَّنته بالشواهد والأمثلة، رجع كتاباً مستجمعاً لعناصره، مستوفياً بالكلية لاسم الكتاب.

وكانت هذه الكلماتُ تنشرُ تباعاً في مجلة (العصور) سنة (١٩٢٩). ثم نشرها صاحب (العصور) حين رأى إقبال القراء عليها، مجموعةً في كتاب، صدر عن دار العصور نفسِها سنة (١٩٣٠).

إسماعيل مظهر:

وإسماعيل مظهر، صاحب (العصور)، رجل كبيرُ القَدْرِ عظيمُ المَحَلِّ في النهضة العربية الحديثة، أنفق حياتَه عاملاً في خدمة هذه النهضة.

---

(١) وكان المازني طرفاً خفياً فيها، صديقاً للرافعي أو مخالطاً له تارة، ومناوئاً على استحياء تارة أخرى. كان عصراً عجيباً فيه من أحوال العلائق الإنسانية كل شيء. أنفق زكي مبارك مساءه ذات مرة مع الرافعي، وكتب غَدْواً يهاجمه.. على طريقته!

• كان من دعاة الفكرِ العلمي الخالص ، ترجم إلى العربية (أصل الأنواع) لداروين ، وغيره. وخدم اللغةَ بما ترجم إلى العربية ترجمةً علمية دقيقة ، ثم بمعجمه الجليل ثنائي اللغة . وقد كان بما صنع من أجلاء من ضمهم مجمعُ القاهرة إليه.

وهو وإن كان يخالف الرافعيَّ في مذاهب الفكر إلا أنه كان يوافقه في صدق التوجه ، وفي التوفر العلمي الخالص على غاياته ومطالبه. وكان الأستاذ محمود محمد شاكر كثير الاعجاب به ، وبما كان من كفاحه ومصابرته في حياته العلمية؛ سمعتُ هذا بنفسي منه. وقد كان من أمره معه أن اشترى منه امتياز مجلته بعد أن توقفت ، فأصدرها سنة (١٩٣٨) شيئاً يسيراً ، ثم توقفت؛ وطفِئَ بتوقفها معنىً في نفسه . . وتولدت حسرة.

• ولم تكن هذه الكلماتُ أولَ ما نشر في (العصور) حاملاً هذا الاسم (على السفود) ولا كان العقادُ أولَ من كُتِبَتْ فيه ، تقدمتها بضعُ مقالاتٍ أنشأها الرافعي في نقد شيء من شعر عبد الله عفيفي ، وكان محرراً للعربية في الديوان الملكي ، وإماماً للملك فؤاد. وكانت للرافعي أسبابُـهُ في كتابة ما كتب نقداً لشعره ، فكتب مقالاتِـهِ تلك ، ونشرها أغفالاً هكذا بلا توقيع ، ثم توقف.

• من أعجب ما كان من أمر الرافعي فيما كتبه في شعر العقاد وبعضِ كلامه في فلسفة الجمال = أنه لم يكن في نيته أن يكتبَـهُ أصلاً ، ولا حدثته نفسُهُ به ، في الظرف الذي كتبه فيه على الأقل ، مع تَغَيُّظِهِ على العقاد ، واجتماعِ الأسبابِ الحاملةِ له على أن يكتب فـي نـقده وفـي التشعيث منه.

وكان حين نَـفَضَ يده من مقالات السفود الأولى في عبد الله عفيفي خاليَ البال من أنه يوشكُ أن يرجعَ إلى مثلها في غريم له كبير.

• أعْجَبَ صاحبَ (العصور) مذهبُ الرفعي فيما كتب ، ولعله أعجبه من وراء ذلك رواجُ مجلته به ، فسأله أن يمضي في مقالاته بالعنوان نفسه فيمن

شاء من الشعراء ، فحينئذ حدثت الرافعيَّ نفسُهُ حديثَها المُعْتَزِم ، وجذبته أسبابُهُ كلُّها إلى رأي فأمضاه ، وجلس إلى مكتب في العصور ، فكتب الكلمةَ الأولى في (السفود) الجديد ، رَجْعَ صَدًى غائراً بعيداً ، لأشياءَ كان قد بدأها العقاد قبل خمسةَ عَشَرَ من الأعوام[١] .

ومثلما كانت مقالاته الأولى في عبد الله عفيفي بلا توقيع ، هكذا كانت أيضاً كلماتُه المُستأنفة ، إلا أن مادتَّها وطوابعَ أسلوبِ صاحبها التي لا تتخلف دَلتا عليه ، وعرف الناسُ ، أعني العارفين بالأدب منهم ، أن ذلك «الإمام من أئمة الأدب العربي» الذي كانت الكلمات تضاف إليه لم يكن إلا الرافعيَّ نفسَه . وسار ذلك واستفاض ، وتواتر القول به ، حتى صار كالنص في نسبة المقالات ـ مفترقة ومجتمعة ـ إليه[٢] .

فهذا ما كان من خبر الكتاب في الجملة ، وهذه أَوَّلِيَّتُـهُ وسياقُ نشره على المعروف المشهور. وقد بقيت أشياءُ نستأنف بها القولَ من حيث انتهينا إليه في أمر نِسْبَتِـهِ آنفاً ، فنقول في هذه النسبةِ وفي مكان أسلوبِ الكتابِ منها ، وفي أسلوبه ذاتِـهِ من جهة دِلالته على حال صاحبه حين اصطنعه ، ثم في مادة الكتاب النقدية ، وهي العنصرُ الأَجَلُّ فيه .

ما عسى أن يكون لصاحب العصور من مادة في الكتاب :

• لم يكن ليداخلَنا ريبٌ في صحة نسبة الكتاب إلى الرافعي ، ولم يكن ذلك ليداخلَ كُلَّ قارىءٍ له ، عارفٍ ـ من كَثَبٍ ـ بملامح أسلوبه الظاهرة

---

(١) جرينا هنا مع ظاهر المنقول من خبر الرافعي في أولية ما كتب من السفود كيف كان ، وإلا فإن في تأمل سياق الأشياء موضعاً للتوقف : هل كان خاطراً خالصاً للرافعي خطر له فأمضاه ، أم أنه كان اقتراحاً من صاحب العصور وافق هواه ؟

(٢) ثم جاء جاء النص الصريح بما أذاع تلاميذه وخاصة أصحابه من أمره بعد وفاته ، وخَلَص الكتاب لصاحبه ، منسوباً نسبة صريحة إليه .

والباطنة؛ على الرغم من «تنكير أسلوبه» الذي ذكره ذاتَ مرة. وما تنكيره إياه إلا إهمالُ صنعتهِ البيانيةِ فيه، التي عُرِفَتْ به وعُرِف بها، وإهمالُ نَسَقِهِ العقليّ العجيبِ المُلابسِ لتلك الصنعة حين يَجِدُّ في مطالبه الكبار، وإرسالُ القول من وراء ذلك عفواً، بلا تكلفٍ له ولا صنعةٍ فيه، وسياقَتُـهُ سياقةَ حديثٍ مرسلٍ دعتْ دواعٍ إلى تقييده وتدوينه، كما ذكر هو نفسُه أيضاً في غير مقام[1].

فلم يكن ليداخلنا ريبٌ إذن في نسبة الكتاب إليه، على الرغم من «تنكير» (معارفه!)، إلا أنها نسبةٌ على التغليب، وهي نسبة عامةٌ لا مُسْتغرِقةٌ فيما نذهبُ إليه. ونحن نذكر هنا جانباً من ذلك نكاد لا نرتاب فيه، أو يقومَ الدليلُ بالنص على خلافه.

• يعلمُ علماً يقيناً كلُّ من عَرَفَ سيرةَ الرافعي في حياته وأدبه، وعَرَفَ شمائلَه العقليةَ والفنية، أنه كثيرُ الإطلاع على الجيد المترجَمِ إلى العربية، كثيرُ التدبرِ له والانتفاع به. وهو جانبٌ يجهله أو يتجاهله من لا علمَ له، أو لا أربَ له في إظهاره، يَطْمِس على مغزى التجديد في فكر الرافعي وأدبه، ويُرِي أنه أثرٌ من آثار الماضين انحدر غلطاً إلى العصر.

في الكتاب نُقُولٌ من كلامِ الأوربيين في غير ناحية من نواحي الأدب والفلسفة، تَسْهُلُ إضافتُها إلى أن الرافعي وقف عليها فيما وقف عليه مترجماً في مظانّه، إلا أن شيئاً يَحِيْكُ في الصدر، بل يَرْجُحُ رجحاناً مُبْهماً، أن صاحبَها هو اسماعيل مظهر نفسُه صاحبُ (العصور)، رَفَدَ بها الرافعي، تَوْفيةً لمادته، وتعزيزاً لأغراضه التي أدار عليها مقالاته،

(١) قال مرة: «وقد كتبنا مقالات السفود كما نتحدث» كما جاء في مقدمته هنا، وقال مرة أخرى: «كتبتها كما أتكلم» وهذا لا شك فيه عند من يعرف نهجه فيما يكتب، وسنعود إليه بعدُ.

واستظهاراً بها في جانب من أكبر ما يَعْتَدُّ به العقاد في تكوينه الثقافي ، أو يَعْتَدّ به له مؤيدوه آنذاك ، هو جانبُ الاطلاع على مذاهب الأوربيين ومذاهب الغرب عامة في مسائل الفكر والأدب وسائر آثار الحضارة والاجتماع ، يَـنْـفُـذُ بها إليه من الوجه الذي يستقوي عند عامة القراء به .

فنحن نرى أن بعض ما جاء في الكتاب من ذلك إنما هو من عِلْمِ اسماعيل مظهر، إذ كان هو مَعْدِنَـهُ ومَظِـنَّـتَـهُ ، إلى أن يقومَ الدليلُ على أنه مما تُرجم قبل كتابة هذه المقالات أو على إبّانها ، وكان بحيث يقف الرافعي عليه .

• وعلى أن هذا ـ على فرض صحته[1] ـ ليس بقادحٍ في أن جُملةَ الصورة وعمودَ المذهب للرافعي وحده ، وسترى في خواتيم الكتاب مناقشةَ الرافعي للعقاد فيما فهمه من فكر شوبنهور ، مُعَوِّلاً في مناقشته على ما ترجمه العقاد نفسُه من فكر الفيلسوف ، وهذا فضلاً عن الجانب اللغوي والأدبي ، وهو أكبر جوانب الكتاب وأجلُّها ، وهو الأصلُ فيه ، إذ كان قد وضعه لنقد ديوان العقاد قبل كل شيء ، فتم له ذلك من الوجه الذي أراده ، وبأدواته التي لا يكاد يدانيه فيها أحد على ما ستراه .

حال الرافعي حين كتب (على السفود) :

• وأسلوبُ الكتاب الذي كتب به أثرٌ من آثار مزاج الرافعي الذي يَصْدُرُ عنه الرافعيُّ حين يكتب ، مصدقاً ظاهرُهُ باطنَهُ ، ومؤتلفاً فيه فكرُهُ واعتقادُهُ ولحظتُهُ التي هو فيها جميعاً؛ وهو شاهدٌ من شواهد صدقِـهِ عامةً في الحياة وفي الأدب ، كما يعرفُهُ العارفُ بآثاره وبمناسباتها ، وموافقةِ مذاهبِهِ فيها كلّها لمذاهبه في الأدب والفن .

---

(١) وهو من النزارة ، على فرض صحته ، بحيث تغمره مادة الرافعي ، فلا يكاد يُشْعَرُ به . وإنما توقفنا عنده استبراء لحق التاريخ في كل ما يقبل أهل العلم عليه؛ وهكذا رجونا أن نصنع في مقامنا هذا كله .

وصدقُهُ هذا الذي نذكره هنا غَيْرُ غُلُوّه حين يغلو ، وقلما وقع له ذلك. ومن هذا القليلِ ما كان منه في هذا الكتاب. وعلى أنه حتى فيما يغلو فيه ، يذكر أصلاً من الفكر أو جانباً من الواقع يبني عليه مذهبه ، ثم يمضي به إلى آخر أشواطه ، مُغْفِلاً ما سواه مما يَصْدُقُ به الحكمُ صدقاً مطابقاً لواقعه. يذهب في هذا مذهبَ القولِ المشهور: «رضيت فقلت أحسنَ ما علمت ، وسَخِطْتُ فقلتُ أسوأَ ما علمت».

وهذه خَصْلَةٌ على كل حال لا ينفرد بها الرافعيُّ وحده ، للعقاد مِثْلُها ، ونخشى أن نقول: وأشدُّ منها ، بل إنه فيما يتعلق بالرافعي هو الذي اجترحها أولاً وسَبَقَ إليها ، في (الديوان) وفي غير (الديوان) كما سنذكره لك[١].

• كتب الرافعي في خاتمة مقدمته للسفود: «**وقد كتبنا مقالات السفود كما نتحدثُ عادة ، لهواً بالعقاد وأمثاله ، إذ كانوا أهونَ علينا وعلى الحقيقة من أن نتعب فيهم تعباً أو أن نصنعَ فيهم بياناً**».

وهذا لو قاله غيرُ الرافعي لم يكن محتاجاً في فهمه إلى غير ما يُؤَدّيه ظاهرُ ألفاظِه ، إلا أنه بالقياس إلى الرافعيّ جِدُّ مُحْتاجٍ إلى المراجعة والتأويل.

أمزجة أصحاب الفنون وخصائص أساليبهم:

تصنع كلُّ شخصية كبيرة في الأدب والفن قانونَها الباطنَ الخاصَّ بها ، ثم تَسْتأسِرُ له[٢]. قانوناً غالباً فيما نرى لا يكاد يتخلف.

---

(١) أردنا ما كان يكتبه أحد الرجلين في صاحبه على طريقة التسفيه والاستخفاف. أما أولية ما كتب بإطلاق فلتحقيقه موضع آخر.

(٢) من فروع هذا الأصل ما هو معروف في عالم الفنون من أن صاحب الفن ربما قلد أحياناً نفسه. وهذا مبني على أن مستوى فنياً بعينه مختَزَنٌ في واعيته الباطنة ، وأنه لم يستطع في لحظته تلك أن يتجاوزه ، فلم يَبْقَ في يده إلا أن يقلده. وعلى أن هذا بعينه ، من وجه آخر ، شاهد على تراجع الطاقة المبدعة عند الفنان.

تصنعُه بغريزتها الفنيةِ المفطورةِ التي ستكونُ ، بخاصّ تجلياتها ، ملمحَها العميقَ الفارقَ فيما بعد؛ تمتاز به من كلّ شخصيةٍ أخرى أصيلةٍ في الفن أو غير أصيلة .

وبهذه الغريزةِ تعملُ الشخصيةُ عملَها الواعيَ وغيرَ الواعي ، وإليها تجذبُ من مفرداتِ الوجودِ وأشيائه كلَّ ما يشاكلُها ويكونُ منها بسبب ، الوجودِ كلِّـه ، الظاهرِ والباطنِ ، المنظورِ وغيرِ المنظور ، لا نـضيف الحياةَ إليه وصفاً فارقاً له ، إذ كان في كلّ وجودٍ بالقياس إلى صاحب الفن نوعُ حياة، يخالطُهُ وينجذبُ إليه بضربٍ من المخالطةِ خفيٍّ شاعر ، وبمزاجٍ وأسلوب؛ ويكون له ، بِورْدِهِ وبما صَدَرَ به ، مزاجٌ في الفنّ الناجزِ وأسلوب .

ومن الصورة الظاهرةِ المصنوعةِ صنعةً بعينها تُدْرَكُ وتُمَيّز ، والروحِ الباطنِ الخفيّ الذي يُشيعُ في الصورةِ سِرَّها وامتيازَها وخصوصيتَها = يأتلفُ العملُ الفنيُّ الكامل ، الدالُّ على صاحبِهِ دلالةً كاملة .

فإذا ما استوت لصاحب الفنّ صورةُ فنِّه ، أو صورةٌ منه فيها معنى التمام فذلك أفقٌ لم يَعُدْ في طوقه أن يتخلفَ عنه ، تنازعُهُ نفسُهُ ، أعني فَنَّـهُ ، إلى أفقٍ فوقَه؛ إلا أنه وقد بلغه صار أدنى مراتبِه ، وأولاه بها وأولاها به ، فما في طوقِهِ أن يتخلفَ عنه .

اعتـداد الرافعـي بما تهيـأ لـه فـي أدبـه ، وحرصـه عليـه :

والرافعي ـ أديباً عبقرياً في الطبقة الأولى من أدباء العالم العظام ـ كان شديدَ الوعي بما تهيأ له في أدبه بالقياس إلى آدابِ العربيةِ ، وإلى المصطفى من آداب العالم[1] لا يرتابُ فيه ولا يتردد .

---

(١) لا نشك طرفة عين: لا في قدرة الرافعي ولا في قدرة كل أديب مفكر على أن يستدل بما عرف من آثار الفكر والأدب في كل عصر ومصر على ما لم يعرف ، وأن يُعيّن طبقةَ ذلك تعييناً مقارباً ، يقيس إليه ما تهيأ له ، ويعرف=

لا جَرَمَ كان شديدَ الغيرةِ على ما تهيأ له ، شديدَ المحاماة عليه أن يداخلَهُ ما يَتَـحَيّفُ منه ويَنْزِلُ به عن مرتبته ، ولاَ جَرَمَ كان أعظمَ شيءٍ طموحاً إلى أن يتجاوزَه ويرتفعَ فوقَه ، بَلْهَ أن يساويَهُ وألا يتخلفَ عنه .

وقد كانَ لهذا أثـرُهُ البليغُ في قلة ما نَشَرَ بالقياس إلى كثرةِ ما كَتَب ، منشوراً في حينه[1] منتزعاً إعجابَ معاصريه ، أو مطوياً غير منشور ؛ ومنسوباً نسبةً صريحةً إليه ، أو مُغْفَلاً فيه اسمُهُ ، أو منسوباً إلى غيره ، من محترفٍ أو صديقٍ أو قريب .

ولو أن متأولاً ذهب يتأوّل ما كان من أمره في إهمال كثيرٍ مما كَتَب وقلةِ التفاتِهِ إليه ، مما يتعلقُ بأَقَلَّ منه أدباءُ وكتّاب ، ونظر فيه من جهة هوى النفس الذي هو بين جَنْبَيْ كُلِّ أحد ، ومن جهة ما فيه من المرفق للجماعة = لم يكن عنده إلا اعتداداً تاماً من الرافعي بكمال الفن ، وأنه هو الأجدر بأن يبقى يَدَ الدهر ، وألا ينقضي عند الجماعة الانتفاع به ، إذا ما انقضت وشائجه وأسبابه الفانية ، ومادته الآخذة من الزائل العابر ، المنتهية بعد يسير إليه .

وقد وقع له مرة «أن بعضَ أبناءِ عمومتِه استملاه كتباً ورسائلَ في معانٍ مختلفة ، حتى اجتمع له من ذلك جملةٌ صالحة ، فأراد طبعها ، فنهاه الرافعيُّ [نهياً] ، وأعلمَهُ أنه يَبْـرَأُ منها إذا هو نَشَرها»[2] .

= به قَـدْرَ نفسـه . وهذا بأسبـاب ووسـائله عند أهـله أقرب مأخـذاً وأيسر تحصيلاً مما يبدو لأول وهلة .

(١) نشر في حينه في المجلات التي كان الرافعي يكتب لها ، ثم لم يدخل في مختار مقالاته المعروف بـ(وحي القلم) الذي نشره الرافعي نفسه ثم سعيد العريان رحمهما الله . وبعضُ جَيِّدِ مالم ينشر رُوعيت في عدم نشره خواطرُ أناسٍ كانوا لا يزالون حين نُشِر في عداد الأحياء .

(٢) هذا من كلام الرافعي نفسه ، لم نزد فيه إلا لفظة واحدة ، ولم نغير منه إلا ضمائره .

فهذا نصٌّ فيما نحن بسبيله ، مع علمنا بمزاجه الفني الباذخ ، واعتدادنا به نصاً في مذاهبه حين لا يكون معنا فيها نص .

• ر مو شيءٌ غايةٌ في الغرابة بعدُ ، أن يكون مذهبُ الرافعي الذي يَعْتَدُّ به ويَذْهَب إليه هذا الباذخَ الذي نَذْكرُه ، ثم يخالفُ عنه إلى غيره ، وحتى يَضْطره ذلك إلى أن يعتذرَ منه ضرباً من المعذرة ولو من وراء حجاب؛[1] فهو عجيبٌ من فِعْلِهِ باديَ الرأي ، إلا أن يكونَ له باطنٌ من الأمر يُفسِّرُ ظاهِرَه ، وما غيرُ ذلك بمفهومٍ ولا معقول .

أسباب الرافعي البعيدة الحاملة له ـ فيما نرى ـ على أن ينهج نهجاً بعينه في مقالات السفود :

قالوا في الأمثال : «شَرٌّ أَهَرَّ ذا ناب»[2] وقالوا : «شَرٌّ ما أجاءَ إلى مُخَّةِ عُرْقُوب»[3] . ولا يَسْتَخِفُّ حليماً عن حِلْمِهِ ، ويُزْعِجُه عن ركانتِه ، إلا أن يَجيئَهُ مالا مَدْفَعَ له ، وإلا أن يَصُولَ على شيءٍ بمثله ، وقد كان غيرُ ما دُفِعَ إليه أشبَهَ به وبخلائقه ، إلا أن ما تتامَّتْ مقدماتُهُ لا محالةَ كائنٌ ، وبِقَدَرِ ما يكون .

• أحْفَظَ الرافعيَّ على العقاد غَيْـرُ ما سَبَبٍ ، واستدعى موجدَتَهُ عليه غيرُ ما داعٍ ، وتزايد ورَبَا حتى غَمَرَ شيئاً كان في نفسِه له يُشبهُ الودّ ، ثم جاء منه

(١) اعتذر في خاتمة مقدمة السفود عن أسلوبه فيه ، مع أن الكتاب قد طبع غير منسوب إليه !

(٢) أَهَرَّ ذا ناب : حمله على الهرير . وأصله صوت للكلب دون النباح ، وقد يستعمل لغيره . يُضْرَبُ في شديد من الأمر يَجيء .

(٣) العرقوبُ من العظام لا مُخَّ فيه ، فلا خير فيه لمن يتناوله . فإذا اضطُرَّ إليه مضطر فقد اضطره إليه شديدٌ من الأمر . ومعناه ووجه استعماله كالذي قبله . ولفظ المثل : شر ما أجاءك . . .

منكرٌ أصاره إلى مالا يُسْكَتُ عليه ، وانتُظِرَتْ فيه سائحةٌ تَسْنَحُ تُمْكِنُ من الانتصافِ منه .

● وجملةُ ما كان ـ على تطاول تاريخه ـ معروفٌ متداولٌ عند طلابه ودارسيه ، إلا أنا نقتصرُ منه في هذا المقام على ما كان من غَرَضِ الكتاب هنا بسببٍ وثيق ، ونجمل ذلك إجمالاً يَجمعُهُ ويجلوه في آن ، يَنْفُذُ فيه قارئه فيما نرجو إلى مذهب الفكرِ الذي ذهبه الرافعيّ في هذه المقالات ـ التي هي أصلُ كتابه ـ وأدار عليه جمهورَ كلامه ؛ ويَـرَى به عِياناً أن ما يبدو في جُملتِهِ تحاملاً من الرافعي على العقاد لم يكن في جوهره إلا ما ركبه به العقادُ نفسُهُ مبتدئاً ، جائراً عليه ـ عند نفسه ـ غَيْرَ مُنْصف . فردّه عليه هنا ، واستخرجَهُ له أضعافاً مضاعفةً من ديوان شعره ومن بعض كلامه المنثور . ذهب فيه مَذْهبَ (النقض) لا (النقد) إذ كانت مفرداتُ الحالِ خاصةً وعامةً قد صارت إليه ، وإذ كان يَردّ على شيءٍ بمثله ، وإذ كان (النقضُ) لا (النقد) طريقاً مسلوكاً ، سَبَقَ العقادُ ـ بما كتبه في (هَدْم) شوقي في (الديوان) ـ إلى أن يَضْرِبَ فيه المثلَ المشهور .

تَعَقَّبَ العقادُ الرافعيَّ في غيرِ موضعٍ مما كتب ، وذكره في غير مناسبة ، إلا أنه فيما في جمهور ما تعقّبَهُ وذكرهُ لم يكن له كلَّ الصديق ، ولم يكن فيما كتبه الناقدَ المنصفَ الرفيق .

سلبه فيما يكتبُ الفكرَ وحَرَمَهُ القدرةَ عليه ، وكَسَرَ قياسَهُ في يده وتَهَزّأ به ، وانثنى فأثنى شيئاً من ثناءٍ على أسلوبه ، كأنما هو فنٌّ من السُّخْرِ وأسلوبٌ من النكاية : أنّ رَصْفَ اللفظِ خالياً من الفكر هو أكبرُ آلته ، وزاد فنسبه إلى السرقةِ الأدبية ، وإذا هو عنده لصٌ سارقٌ ، وارتفع فحلاَّه حلية ظاهرة دميمة[1] ، تَمَّمَ بها على وصفه الباطن .

---

(١) حِلْـيَـةُ الرافعي ـ أي وصفه الظاهر ـ التي حَلاَّهُ بها العقاد تجدها في نصه الذي اقتبسناه من (الديوان) في خواتيم هذه الصحف .

أَقَلُّ من هذا عند غيرِ الرافعيّ يُحْفِظُ ، حتى لو كان حقاً من القول ، أو شيئاً قريباً منه ، وصورةً من اللفظ تُشَاكِلُ الواقعَ أو تشبهه.

الأسلوبُ جوهرُ الأدب عند الرافعي ، من قِبَلِ أنه صورة هذا الجوهر ، وظاهره الدال عليه دلالة المطابقة ، ورسالةُ هذا الأدب الفكرية والفنية :

عند الرافعي لا يكون الأدبُ أدباً حتى يكونَ معه فكر ، الفكرُ الذي هو فكرٌ وشعرٌ معاً ، منبعثٌ انبعاثَهُ العبقريَّ فكراً وألفاظاً وعبارات ، وإذا هو أدب فني كامل الصنعة والتكوين. وما التجديدُ عنده إلا في هذا الضربِ من الفكرِ الفنّي الكاملِ ، لا فيما يبدو للوهم القاصرِ لأول وهلة من ظواهرِ اللفظ ومفردات الأسلوب. اللفظُ في ذاته ، عند من يُحْرِزُه ، قريبٌ ممكن ، ومفرداتُ الأساليب حاضرةٌ عتيدة ، وإنما الشأنُ في الأسلوب ، الذي هو في الأدب الكامل صورتُه الناجزةُ الكاملة ، أعني الصورةَ وروحَ الصورة ، الظاهرَ والباطنَ في آن.

وهو عنده هذه الصورةُ البيانيةُ منقولاً فيها اللفظُ من حال إلى حال ، نافذاً بها الفكر نفاذَهُ الشاعر ، مستوفياً في نفاذه وتغلغله صنعةَ الفن ، مسوقاً هذا كلُّهُ سياقَهُ الحيَّ ؛ من جوهر الحياة الإنسانيةِ يأخذ ، وإليها يؤدّي ويَـنْـقُل ؛ مرتفعاً سامياً بها ، بجلائه مواضعَ الرِّفْعَةِ والتكرّم منها.

صورةٌ محكمةٌ متساوقة واحدة ، بعضُها من بعض ، ولا ينفكُّ منها شيءٌ من شيء. يخالفُ صاحبَها من شاء أو يوافقُه ، لكنه لا يَقْدِرُ من مخالفته منصفاً على أكثرَ من أنه هو مخالفٌ لا أن صاحبَها غيرُ قادر ، وأنه إنما يخالِفُ عما يخالف عنه من أجل أنه (يستحلي) غيره ، لا من أنه في ذاتِه موحشٌ شائـهٌ !

وهذا ـ حين يكون ـ أسلوبٌ من الفِكْر ومذهبٌ من الحُكْم يذهبُـهُ متلقٍ خالٍ بنفسه (يستحلي) ما يشاءُ لنفسه وينكر ، لا نَـكِرَةَ فيه عليه = لا مذهبُ

ناقدٍ حكَمٍ فيصلٍ ، يحكمُ بالحَيْدَةِ الخالصةِ لنفسه ولغيره ، ويُجَرِّدُ الحكمَ في حاضرٍ تحت يده وهو ينظرُ من ورائه إلى التاريخ.

فجاء العقادُ رحمه الله فأبطلَ هذا كلَّه ، ونَـقَضَهُ على صاحبه حين استلَّ منه روحَهُ الخالقَ الذي انبنى عليه ، أعني حين أنكر على الرافعي أن يكون صاحبَ فِكر ، وأن يكون لرأيه فيما يزاوله سدادٌ واستواء.

وما بعد هذا عند الرافعي بقيةٌ ، وهل اللفظ بعد انتزاع روحِهِ الفني منه إلا عظامٌ في أجلادٍ يابسةٍ تَـتَـقَعْـقَعُ؟

لو غيرُ ذاتِ سِوَار . . . لو أن ناعي هذا عليه صاحبُ أدبٍ يَـتَـنَـدَّى أدبُهُ غضارةً ونضارة ، أو صاحبُ فكرٍ عاكفٌ على خالصةِ فكرِهِ يستخرجُ دائباً أسرارَه . .

وأَسَرَّها الرافعيُّ في نفسه يتربص[1] ، ورأيُهُ في أدبِ العقاد وأدبِ العصر رأيُه ، ومذهبُهُ فيما تصطنعه طائفةٌ من رجالاته يُرِيْغُونَ به الشهرةَ السهلةَ وذيوعَ الصيتِ مذهبُه ، حتى كانت سنةُ تسعٍ وعشرين ، وكانت (العصور).

● فبضربة واحدة استدنى إليه قديمَ العقاد معه وحديثَه ، وجمع ما قاله فيه فَرَدَّه بأسره عليه ، وجَرَّدَهُ ـ مرةً واحدة ـ من الفكر والشعر ، ومن الفلسفة والأدب ، ومن الأسلوب وما وراء الأسلوب ، ورَدَّه مترجماً ينقلُ ، فيحسنُ في ذلك أو يسيء ، لا مفكراً أصيلاً يُؤَثِّلُ ويَشِيدُ ، وحَقَّقَ عليه الأخْذَ ، ونَـعَى عليه الاقتباسَ وما فوقَ الاقتباس.

---

(١) بعض ما كتبه العقاد في الرافعي رَدّه الرافعي عليه ، إلا أن بعضه لم ينشر ، وما نشر لم ينشر بتمامه ، تصرف فيه ناشره بالحذف. وكان ذلك في (البلاغ) التي كان العقاد محررها الأدبي.

فهذا كلُّه كان ، وبإيماضِ الإشارةِ أو بغير إشارةٍ أصلاً يُعْرَفُ ، وبلا حاجةٍ إلى فَضْلِ تصورٍ أو خيال.

بعض أساليب الأدباء في مصاولاتهم في صدر هذا القرن:

وقد بقيت واحدة ، لا بإشارة تعرف ولا إيماء ، ولا يَنْفَعُ فيها إلا نصٌّ كاشفٌ صريح ، تَرُدُّ لأهل العَصْرِ شيئاً من خلائق ذلك العصر ، ليس للإنصاف - فيما شَجَر بين القوم - بغير تصورِها من سبيل.

فيما بينَ أواخِرِ القَرْنِ التاسعَ عَشَر والعشراتِ الأولى من القرن العشرين ، استحالت طائفةٌ من خلائقِ الهجاء والهجائين وأساليبهم الغابرة استحالَتَها المعاصرة ، ونَبَغَتْ منها صورٌ مركبةٌ مُحْدَثة فيها الوافدُ والأصيل ، واستعارها النثرُ فتصرف فيها ، وقد كانت خالصةً للشعر أو تكاد[1]. أعانت عليها ظروفُ العصرِ كلها ، ووافقت هَوًى في أنْفُسِ طائفةٍ فافْتَتَنَتْ فيها كُلَّ افتنان.

فما كنت تَعْدَمُ حينذاك من كان يكلم خصمَهُ - بكلام مكتوب - وهو مُشيحٌ بوجهه عنه مرة ، أو يَلْبَسُ له قفازاتِ النبلاء والأشراف على الطريقة الأوربية مرةً أخرى ، أو يدفع في صدره بإصبعه بازدراء مرةً ثالثة ، أو أنه (بالملاوعة) - جامعاً هذا كلَّه - (يُلَاوِعُ) خصمَهُ على طريقة أهلِ البلد في مصر الحبيبةِ مرةً رابعة.

يقول أحدُهم لصاحبه: «يا هذا ، عندي ما يَشْغَلُني عن ضغينة نفسك الصغيرة ، فاذهب إلى عالم الأشباح الذي ألقيت بك فيك منذ سنوات»[2]

(١) أردنا الهجائيات التي هي من قبيل النقائض ، يقول القائل ويَرُدُّ عليه خصمه؛ وهذا كان جمهوره في الشعر ، وكانت منه في العصور الإسلامية أشياء منثورة.

(٢) هذا من كلام العقاد نفسه في الرافعي. كادت الصور الأدبية عندهم تكون =

يقول له هذا وليس له في تلك اللحظة شغلٌ غيره ، ولكنه صورةٌ من صور الردّ ، يَلْبَسُ لها صاحبُها صورةَ التَّـنَـزُّهِ والاستعلاء.

وقد كان الرافعيُّ يعرفُ هذا معرفةَ أهلِ العصر به ، ويعرف مافيه من دقيقِ الصنعةِ حين يحتاجُ المقامُ إليه ؛ إلا أنه يعرفُ معه أن لكلِّ فنٍّ من فنونِ الإنسانيةِ فيما تزاولُهُ من شؤونها فناً آخَرَ يقابلُه ويكافئه ، وينتصفُ بأسلوبه منه.

فكان بَـيِّـناً جداً عنده أن ليس لاستعلاءِ العقادِ الذي يصطنعُهُ إلا فنٌ نازلٌ من القولِ يلقاه به ، مع استجماع ذلك الفنِّ لكلِ أسبابِ القوةِ من داخله ، فيكون موجعاً ومُهيناً في آن.

وزَيَّنَ هذا عنده وأغراه به ما كان يراه من هيبة جمهور من يناوئون العقاد من التعرّض له ، فكان أبلغَ في أسلوب النِّكايةِ عنده أن يلقاه مع تلك الهيبةِ بهذه الصورةِ من الاستهانة.

ثم بلغ ذلكْ من رأيه غايتَهُ حين رَدَّه إلى علمِهِ المُسْتَيْقِنِ أنّ كلَّ جليلٍ نبيلٍ أَبَديٌّ خالد ، على حين أنه يريدُ عارضاً يَدُل دِلالَتَهُ ويؤدّي رسالتَه ويُوْجِعُ فيما بينَ ذلك ، لا أدباً من أدب الخلود كذلك الذي احتشد له في معركته مع طه حسين ، وأنشأ فيه من الفصول ما انتزع بعضُهُ إعجابَ طه حسين نفسِهِ ، الأديبِ الذواقةِ العبقري . . .

= عوالم محققة ، رحمهم الله . وقد كان الرافعي كتب مرة شيئاً في الصحافة والأدب ، فظن الدكتور زكي مبارك رحمه الله أنه يعرض به ، فكتب يقول: «ما رأيك إذا وقف لك أحد الصحفيين في معركة فاصلة . . . وألقى بك في هاوية التاريخ . .». فأجابه الرافعي: «إن وزارة الداخلية اطلعت على مقاله فأمرت جميع المحال التي تبيع لعب الأطفال ألا يبيعوا «معركة فاصلة» ولا «هاوية تاريخ» . . .

فهذا كان جُمَّاعَ التدبير عنده[١] ، ولكن كيف وهو لا يَفْصِلُ من قلمه ـ منشوراً مُعْلَناً ـ إلا كلَّ جليلٍ نبيل ، وكيف وهو لا يُذِيعُ على الناس من يومه شيئاً إلا وهو لا يستطيعُ في يومه ذلك أجودَ منه؟

مُعْضِلٌ من الأمر ولا ريبَ بالقياس إلى صاحبه ، لا مُتَنَفَّس له فيه ، يُفْسِدُ عليه باستغلاقه تدبيراً من التدبير ، يُصيبُ به في نفسه مراميَ وغاياتٍ ، لولا أن ما يجيءُ في تصاريف القدر لا يحتاج معه الإنسانُ إلى تَصَرُّفٍ ولا تدبير.

كانت مقالاتُ (السفود) مُغْفَلَةُ النسبةِ تلك هي فُسْحَةَ الرأي الذي نَفَذَ منه الرافعيُّ إلى غرضه ، وهي فضاؤه العريضُ الذي سيجولُ فيه جولاتِهِ الجادةَ العابثةَ في آن ، ويقولُ فيه بعلمه ورأيه ونفاذه ، دون أن يحتشدَ لفنِّهِ احتشادَهُ المعروف.

وحالُهُ هذه التي أقبل بها على نقد (ديوان العقاد) وادعاً مستريحاً مرةً ، وجاداً كلَّ الجدِّ مرةً أخرى ، هي هي جملةُ القولِ في صِفَةِ ما تَمَّ له في نقده ، ممتزجاً فيه الجدُّ الخالصُ بالتهكم والسخرية والعبث إلى حدّ استعمالِ العاميةِ في مواضعَ ، غرضاً مقصوداً كما ذكرناه ، إمعاناً من صاحبه في النَّيْل من منقوده بغير صورةٍ وسبيل.

من كلام العقاد في الرافعي:

● ونحن نذكرُ هنا قبل أن نمضي بالقول إلى غايته طرفاً مما كان يجري به قلمُ العقادِ خاصةً دون سائر معاصريه في ذلك العهد من عهود التاريخ العربي الحديث ، في الرافعيّ وفي غيره ، مما زعمنا أنه ربما كان أشدَّ مما

(١) كل ما فصلنا فيه القول في مذهب الرافعي الذي ذهب في مقالاته (السفود) نقوله حدساً وتقديراً ، نستظهر فيه بما نعرف من حال الرافعي ومن سيرته في حياته وأدبه.

قاله الرافعي فيه. نذكرُهُ تبرئةً للقولِ فيما دُفِعْنا إليه من تفسير الكتاب وتفسير ما كان من مادته وأسلوبه في سياقه التاريخي الذي كتب فيه، وإنما نذكرُ قليلاً جداً من كثير، وعلى كُرْهٍ منا نفعل ذلك.

• كتب العقاد في الفصل الذي أفرده للرافعي في الجزء الثاني من (الديوان)[١] وأفرد المازنُّي مِثلَهُ لعبد الرحمن شكري:

* «مصطفى أفندي الرافعي رجل ضيقُ الفكر، مُدَرَّعُ الوجه، يركبه رأسهُ مراكبَ يتريث دونها الحصفاء أحياناً، وكثيراً ما يخطئون السدادَ بتريثهم وطولِ أناتهم. وطالما نفعه التطوح، وأبلغه كلَّ أربه أو جله، إذ يدعي الدعاوى العريضة على الأمة، وعلى من لا يستطيع تكذيبه؛ فتجوز دعواه وينفق[٢] إلحافه عند من ليس يَكْرُثُهم أن يخدعوا به.

بيد أن الاعتساف إذا كان رائده الخرق في الرأي وشيكٌ أن يوقع صاحبَهُ في الزلل إحدى المرار، فيضيع عليه ما لو علم أنه مضيعه لفَدَاه[٣] بكل ما في دماغه من هَوَس وما في لسانه من كذب. وكذلك فعل ضيقُ الفكر وركوبُ الرأس بمصطفى الرافعي فَحَقٌّ علينا أن نُفْهِمَهُ خَطَرَ مركبه، وأن قدميه أسلسُ مقاداً من رأسه، لعله يُبْدِلُ المطيةَ ويُصْلِحُ الشكيمة».

وقال في حَقّه في مقام آخر:

«مصطفى صادق الرافعي رجلٌ عامي من فَرْعِهِ إلى قدمه، أومن قدمه إلى فَرْعِهِ. يظن كما يظن كلُّ عاميٍّ أن المناقشةَ هي أن تغلب، وأن علامة الغلب أن يظل يتكلمَ ويتكلم».

• فهذان نموذجان قريبان، يشهدانِ بألفاظِهما على (جَوّ) المعارك

(١) ص: ١٧٠، ط ٣، دار الشعب، بلا تاريخ.
(٢) في المطبوع: وينق، تطبيع.
(٣) في المطبوع: لفدام، تطبيع.

الأدبية والفكرية التي كانت تثورُ حينئذاك ، وحسبُك بوصف الرافعي بالعامية شاهداً على المكابرة ومغالطة النفس ، وعلى إرساله القول للغَضّ والإهانة لا للنقد والتمحيص.

وضَعْ (عاميةَ الرافعي) هذه إن شئتَ بإزاء كلمتي محمد عبده وسعد زغلول فيه[١] ، وهما من هما في جلال القدر عند العقاد خاصة قبل غيره من المفكرين والكتاب.

ثم ضعها إن أحببتَ بإزاء كلمةِ فيلكس فارس حين تَمَّتْ له ترجمةُ كتاب نيتشه: (هكذا تكلم زرادشت) بعد وفاة الرافعي ، فكتب يقول: إنه كان يتمنى أن يكون الرافعيُّ حياً ليسمعَ رأي حكمةِ الشرق في فلسفة الغرب ، أو كلاماً هذا معناه[٢].

بل ضَـعْهـا بـإزاء كلمـةٍ للعقـاد نفسـه قالهـا في الرافعـي قبـل كلمتيه المتقدمتين فيه: «إنه ليتفقُ لهذا الكاتبِ من أساليب البيان مالا يَـتَّـفِقُ مثلُه لكاتبٍ من كتاب العربية في صدر أيامها».

• أيةُ مفارقةٍ هذه ، وأية قدرة على مغالطة النفس ، وأيُّ عصر غريب كانوا يتقلبون فيه ، لا نخص كاتباً ولا نستثني آخر. وإن أَحَقَّ الناسِ بوصفٍ أن يضافَ إليه من كان ذلك عنده عملاً يُعْمَلُ قبلَ أن يرجعَ وصفاً يؤثر.

---

(١) كلمتا محمد عبده وسعد زغلول هاتان من أصول ما ألقى العداوة بين الرافعي والعقاد؛ رماه العقاد بافتعال الكلمتين وتزويرهما على الرجلين. والحال أن كلمة محمد عبده موجودة بخطه ، وكلمة سعد زغلول أثبتها له سكرتيره محمد إبراهيم الجزيري ، وزاد أن كتاب سعد إلى الرافعي الذي تضمن عبارته المشهورة تلك «هو الذي كتبه بخطه ، لم يَكِلْ إلى أحد من سكرتيريه كتابته». وهذا فوق أن العبارة نشرت واشتهرت في حياة سعد.

(٢) أكتب هذا من الذاكرة ، وقد بَعُدَ العهد به جداً ، وليس الكتاب تحت يدي فأثبت نص عبارة الرجل.

ولغةُ العقاد تلك في الرافعي خاصة[1] هي التي حملت توفيق الحكيم وهو من عرفتَ كَيْساً وحكمةً وحِرْصاً على اللَّيِّـنِ من القول = حملته على أن يقولَ للعقاد في بعض ما كان بينه وبينه:

«إنك للمرة الأولى تخاطبني بهذه اللهجة التي كنت تخاطب بها الرافعي رحمه الله. أبهذه السرعة تضعُ الناس في صفّ أعدائك ؟».

ومن كـلام الـعقـاد فـي شـوقـي وفـي الأمـة:

• على أن غايةَ الغايات فيما كان يرسلُه العقادُ رحمه الله أحياناً من القول، باندفاعاتِ نفسِهِ لا بتمحيص رأيه، ما قاله في حقّ الأمةِ بأسرها لا في حقّ رجلٍ فردٍ من أبنائها. وذلك أنه حين احتُفِلَ بشوقي أميراً للشعراء، ووفدتِ الوفودُ العربيةُ مبايعةً له، وكان رئيس شرف الاحتفال سعد زغلول، وذلك في السنة التي توفي فيها (١٩٢٧) = فحين كانت الأمةُ العربيةُ كلُّها لا مِصْرُ وَحْدَها تحتفل بشوقي أميراً للشعراء، كتبَ العقادُ في افتتاحية (البلاغ) التي كان محررَها الأدبي: «إن الأمة التي تحتفلُ بشوقي لا تعرِفُ معنى الكرامة»[2].

---

(١) من لغة العقاد في غير الرافعي نموذجان في الدكتور محمد حسين هيكل وخليل ثابت، وكانا رئيسي تحرير (السياسة) و(المقطم) تجدهما في صدر هذا الكتاب (ص: ٦٤).
وقد اتفقت للعقاد مع هيكل واقعة في مجمع القاهرة، بعد ذلك بزمان، لها ظاهر يضحك وباطن يوجع: صدم العقاد هيكل، وكان العقاد من الطول على ما تعلم، وكان هيكل من القصر بضد ذلك. قال هيكل بالمصرية الدارجة: (حاسب) فقال العقاد: كيف (أحاسب) وأنا لا أراك؟!

(٢) جمحَ بالعقاد هنا قلمُه واحدةً من جَمَحاته المعروفة، ونزع به إلى غايةٍ من القول لا يرضاها هو في قرارة نفسه، قبل ألا يرضاها عدوّ أو صديق. =

. . . .

= ولو أقرّت ذائقة العقاد الروحية والمنطقية مثلَ ما تفلّتت إليه مقالتُـهُ هذه لم يَـكَدْ يَسْلَمُ له من أبنيته الفكريةِ والمنطقيةِ من عامة آثاره كبيرُ شيء ، كيف وأصلُها في نفسه متقوّضٌ هائر ؟

وذلك أن تأويل عبارته يفضي بمتأوّلها كيف توجّه إلى طريق مسدود: فلو أنه ذهب في تأويل عبارة العقاد مذهب إحسان الظنّ بصحة مقصده ، والثقة بجودة رأيه ، وما يكون معهما ضرورةً من التصديق بادي الرأي لمقالته ، لم تكن الحال عنده إلا أن عظيماً من الأمر حمل العقاد على عظيم من القول ، ويكون شوقي عنده قد ركب الجُلّى ، وقارف العظمى ، وجاء بالصّاخّة أو الطّامة ، وخان الوطن ، أو جدّف في ذات الإله. فيكون شيءٌ كهذا ـ أو فوقه ، إن كان فوقه شيءٌ ـ مستحقاً عند العقاد أن يوبّخ الأمة من أجله.

فإن رجع يفتش ويصحح ، ويبحث عن العثرة والجريرة ، ويطلب للكلام واقعاً من الواقع يتأيد به ، أخرجته المراجعة إلى أشد مما كان فيه ، وبقيت مقالة العقاد في يده بلا سند من الواقع تَسُوْغ به ، ولم يَـبْـقَ معه إلا أن يُقِرَّ بالعجز ، وينظر حائراً سادراً في اللاشيء ، ويوبخ نفسَه ما دام العقاد قد وبّخه. وذلك أنه ينظر فلا يجد إلا أن شوقياً قال الشعر على غير ما يستحسن العقاد من الشعر ، فغنّى أفراحَ الأمة وأتراحَها ، أي أنه مدح ورثا ، وقال الشعر في المناسبات ، وصنع ما صنعته ـ وما لا تزال تصنعه ـ أمم من الناس ، منذ كانت الدنيا وإلى أن تنقضي؛ وأنه لم يلبس حالاً غير حاله ، فيترجم شعوراً مستعاراً غير عربي بألفاظ عربية؛ وأنه جدّد متسقاً مع نفسه بأقصى ما تطيقه موهبة رجل واحد في عصر واحد. وحين تعثّر لم يزد على أن ضم عَثَرَاته إلى ديوان العثرات المأثور في آداب العالم وفنونه:

مــن ذا الــذي مــا ســاء قــط ومــــن لـــه الحسنـــى فقـــط ؟

فهو الإفراط على النفس وعلى الحقيقة يركبان بصاحبهما كل صعب.

• فهذا لا يُـذْكَرُ معه شيءٌ مما كان بين القوم ، وما كانوا يَتَهادَوْنَـهُ بينهم من قوارصِ القول[1] ، وينبغي أن يكون مع المرء من (الاعتقاد بالعقاد) أمثالُ الجبال، بل مالا يكون مِثْلُهُ في وهمِ مُتَوَهِّم = من أجل أن يُجِيْزَ قولَهُ ، ويَرَى أنه حين قاله كأنه لم يُقلْهُ!! وهذا أيضاً غايةٌ من الغايات في ارتكاس الشخصية الانسانية التي أنفق العقاد عُمُرَهُ يدافعُ عنها وعن كرامتها.

• وأهونُ من هذا وأقربُ وأكرم ، وأشبَهُ بالأحوال الإنسانية في قوتها وضعفها وسموها وانحدارها ، أن يُطْوَى ذلك البساط بما فيه ، فلا يبقى إلا نافعٌ من القول ، يتجددُ على الأيام بقَدْرِ ما فيه من الخير ، وعلى أن ذلك

= ومن تمام التاريخ في هذا الموضع أن تنظر فيما كان من رأي العقاد والمازني رحمهما الله في شوقي وفي (الديوان) بعد أن تراخت بينهم وبينه الأيام.

أما العقاد فعلى عادته في ثوابته وفي كبريات آرائه: قريبٌ بعضُ كلامه فيها من بعض. وإنما يؤدي في حالٍ بعبارة ما لا يصادم في جوهره ما كان قد أداه في حالٍ غيرِها بعبارة أخرى ، يظهر هنا شيئاً ، ويظهر هناك شيئاً غيره ، بلا كبير اختلاف بينهما في الجوهر واللباب ، سوى أن عبارته المتأخرة (هنا) أرفق بمن قيلت فيه من أختها المتقدمة.

وأما المازني فعلى سجيته أيضاً في سهولة النفس وبعد الغور: صادق شوقياً في حياته (!) وحكى عنه رأيه في انتفاع الشاعر بنقد من ينقده ، ولا سيما في اللغة (النحو والصرف) (!) وأنه هو نفسه انتفع بهذا النقد في مطالع حياته الشعرية.

ثم رجع إلى الكلام في شوقي وفيما كان من بواعث القول فيه عند كتابة (الديوان) في غير مناسبة. ومن آخر ما حُكي عنه من ذلك ما حكاه الأستاذ ثروت أباظة منذ نحوٍ من عام.

(١) وعلى أن من غرائبهم مع هذا أن أحدهم ربما أرسل في صاحبه من مُرِّ القول ما شاء في الغداة ، وناقَـلَـهُ مستطرفَ الأحاديث في العَشِيِّ!

كائنٌ في الأكثرِ الأعَمّ ، وهل يرجع إلى ذلك العصرِ يُحْصي أحوالَهُ إلا دارسٌ مؤرخٌ نزيه؟

جوامع من القول في صفة الرافعي لما كتبه في السفود :

• ونرجعُ بعدُ إلى عبارة الرافعي التي خرجنا في بيانها إلى هذا الفصل الطويل.

في العبارة من مفردات المعاني خمسة أشياء: **أن صاحبها كتبها كما يتحدث ، وأنه صنع ذلك لهواً بالعقاد وبأمثاله ، وأن ذلك لهوانه عليه وعلى الحقيقة ، وأنه لم يتعب فيه ولم يصنع فيه صنعةً بيانية.**

• أما **الحديث** فهذا كأنه توقيع الرافعي على أنه هو كاتب المقالات ، وإلا فمن غَيْرُهُ ، أو مِثْلُهُ ، يتحدثُ حديثاً مرسلاً ، لا تبلغ مَرتَبَتَهُ كتابةُ كثرةٍ كثيرةٍ من محترفي الكتابة في عصره ، تُوْمِضُ في تضاعيفه وَمَضَاتُ البيان ، ويُبِيْنُ به عن دقائقَ من دقائقِ معاني الفكر والشعر لا يَعْيَا بها ولا يتخلف ، يُشَدِّدُ بها على غريمٍ له (جبارِ ذهن) يَتَرَبَّصُ به من قرائه ، فضلاً عن غيرهم من سائر القراء ، عشرات ألوف أو مئون ؟

ولو لم يكن هذا الحديثُ من القوة والتماسك بمكان ، إلا فيما خالف فيه إلى لغة العامة تهزءاً واستخفافاً = هل كان صاحبُهُ ـ الذين عرفناه ـ يَرْضَى أن يُنْشَرَ مجموعاً في كتاب؟

• وأما **اللهوُ** فقد عرفتَ حقيقته ووجهَهُ ومذهبَ الرافعي فيه ، وأنه كلُّ الجادِّ في إدارته على هذا النحو وبهذا الأسلوب ، وفي تضمينه في الوقت نفسه ، من مادة العلم والفكر والرأي ما يَسُوْغُ معه دفعُهُ إلى القارىء؛ وإلا فما الحاجةُ إليه إن كان لا بعلمٍ يُقْبِلُ على قارئه ولا بفن يَتَخَيَّلُ؟

ثم أليس التقديمُ له بمقدمةٍ جادةٍ محكمةٍ ـ حين رجع كتاباً بعد أن كان مقالات ـ آيةَ الجدِّ في أمره ، من أوله إلى آخره؟

• وأما **الهوانُ** فنحن نصدّقه حقاً تصديقاً (في الجملة) ونردّه في الوقت نفسه ، إلى تلك (الملاوعة) التي ذكرناها آنفاً عند (التفتيش والتفصيل) .

آيةُ الصدقِ فيه ، أو في جانبٍ منه ، اتساقُ كاتبه مع نفسه ، وإلا كانت هي الهينةَ عليه لا نفس خصمه؛ من أجلِ أنه لا يجوزُ له أن يستخرجَ من نصوص هذا الخصمِ ما استخرجه ، مُسَفِّهاً له من أجله ، ثم يكونُ عنده بمنزلةِ التجلةِ والإكبار[1] . ولكنه يضع منه مرةً بحقٍّ وينزلُ به ، ثم لا يزالُ به (بالملاوعة والنكد) نازلاً مستهيناً . وهكذا كان شأنُ العقاد معه ، وهكذا كان شأنهم في الجملة أو أكثرُه .

شـيء من حيـاة الرافعـي وما فيـه من عجيب الدلالـة على سموّ أدبـه :

وأما ما ذَكَرَ من **التعب وقلة الاحتفال بصنعة البيان** هنا فهذا أصحُّ شيء

(١) يردد أصحاب العقاد وتلاميذه كلمة قال الزيات ـ في الرسالة ـ إن الرافعي قالها في العقاد ، يرونهاكلمة الفصل فيما كان بين الرجلين ، وَجَّهَ فيها الرافعي الحُكْمَ على نفسه ، وأَوْجَهَ صاحبَهُ . وهي ـ لو صَحَّتْ ـ تنقض ما قاله فيه عروةً عروة ، وتهدِمُهُ عليه ، ويكون ما قاله فيه مستخرِجاً إياه من نصوصه ، على كثرته واستطالته = صحيحاً في ذاته وغَيْرَ صحيح! وهي قضيةٌ لو لقيتَ بها رِسطاليسَ صاحبَ (المنطق) لأَعْضَلَتْ به ، ولأحوجته إلى أن يَكُرَّ النظرَ في أصول منطقه .
أما نحن فما ندري هذا الذي كان بين الرافعي والزيات كيف كان؛ ولكنا ندفعه دفعاً لا شبهة فيه ، لا لاستحالته على الرافعي فقط ، بل لاستحالته في ذاته كما تراه .
وعلى أنا لا ندفع أن يكون له أصلٌ من كلام الرافعي ، يقوله للزيات ولغيره ، فيه تقدير من التقدير للعقاد على نَحْوٍ بعينه ، بل نرى أنه هو الأصل ، بل نحن لا نعقل على الرافعي غَيرَه ، حتى قبل أن يُقبل العقاد على عالم من الفكر غَيْرِ الذي كان فيه أيامَ خصومته مع الرافعي .

في الباب ، إلا أنا نفصّلُهُ شيئاً من تفصيل ، نُوْجِدُ به القارىءَ المعاصرَ طرفاً من خبر الرافعي في حياته؛ يَعْذُرُهُ من أجله في بعض الأمر إن اتسعت نفسُهُ للمعذرة ، أو لعله يُكْبِرُهُ إن انبعثت نفسُهُ لمعاني الإكبار.

يعلمُ دارسُ الرافعي أنه لم يكن محترفاً للكتابة فارغاً لها ، وأنه كان موظفاً في محكمة بطنطا؛ فكان بياضُ نهارِهِ الذاهبِ في العمل ينقلبُ في نفسه غماً أَرْمَدَ ، أسفاً على ما ضاع من وقته المحتاجِ أشدَّ الحاجةِ إليه ؛ فكان تَـفَرُّغُـهُ (حلماً يداعب أجفانه) كما يقال ، وأُمنيةً عزيزةً تهفو إليها نفسُه إلى أن مات.

وكان مذهبُه الأدبي والأخلاقي المبنيُّ على طلب الكمال في العلم والفن = يقتضيه جهداً عصبياً وذهنياً خارقاً ، لا يحتمله بدنُـهُ ولا يُعِيْنُ وقـتُـهُ عليه ، إلى ما كان من اغتمامه بالوَقْرِ الذي كان في أذنيه ، المتزايدِ حتى يبلغَ به حَدَّ الـصَّمَمِ وهو في الثلاثين[1]. فكان كثيرَ الاعتلال والتعب ، يشكو ذلك لخُلَصائِهِ شكوى تقرير الواقع لا شكوى النِّـيَـاحَةِ عليه.

وكان **التعبُ** (مُفْرَدَةً) شائعةً في كلامه الذي من هذا القبيل. وكان اعتلالُه أو تعبه يَكْثُرانِ عليه حتى يمنعانِهِ أحياناً من كثيرٍ مما تطمحُ نفسه إلى عمله ، ولا يجد من وقته ولا من نشاطه معيناً عليه. بل لقد كَثُرَا عليه وتَحَيّفا منه. . . حتى وافاه أجلُهُ ، وقضى وهو في السابعة والخمسين.

لا جَرَمَ كان آيةَ الآياتِ على ضخامة موهبته؛ وعلى رسوخ تكوينه الذي تهيأ له في شبابه الأول ، بل على ناحية الإلهام الذي هو من ملامح كلّ عبقريةٍ كبيرة ، بل هو مَلْمَحُها الأسمى = لا جَرَمَ كان آيةَ الآياتِ على هذا

---

(١) سماه العقاد في بعض ما كتبه فيه: المهذار الأصم. أما الصممُ فقد عرفته ، وأما الهَذَرُ. .

كلِّه بدائعُهُ التي كان يستخلصها من غَمْرَةِ حياته المُتْعَبَةِ المُتْعِبَةِ ، وأعصابهِ المرهقة ، وبَدَنه الكليل .

وليس إلا الدهشةُ والعَجَبُ التامان يملآن صدر من يقف ـ منصفاً ـ على كمال فنّه واضطراب حياته ؛ وعلى السمو الروحي في هذا الفن[1] والنَّكَدِ النَّكِدِ في تلك الحياة ؛ وعلى النَّعْمَةِ والثراءِ العظيمين هنا والفَقْر المُقْفِرِ المُجْدب هناك .

عبقريةٌ كبيرةٌ ولا ريب ، على ذاتِها وعلى مادتِها المُلْهَمةِ تُـعَوِّلُ أولاً ، ثم على ذاتها ، . . ثم على سائر الأشياء .

واتكاء الرافعي على نفسه من أكبر ملامح أصالته الفكرية والفنية . وبكونه منشئاً مبدعاً تميّـز عند الأثبات من أدباء عصره ونقاده .

• فقد عرفتَ الآن مغزى **التعبِ** حين يذكر التعب ، ووقفتَ على بُعْدِ غَوْرِهِ في نفسِهِ وفي حياته ، وأنه ليس لفظاً من اللفظ يرسله فمٌ أو يجري به قلم ، وعرفتَ معه ومن قبله معنى **الصنعة والبيان** في قلبه وعلى خاطره ؛ فإذا ما أقبلَ بتعبٍ يَتْعبُهُ وبيانٍ يجلوه على أمرٍ من أمره ، أو مال مُعْرِضاً عنه ، أليس بحياته نفسِها يُقْبِلُ أو يَميل . . ؟

• وقد بلغَ الكلامُ على عبارةِ الرافعي غايته ، وما بقي إلا أن نذكر مالم يَذْكُرْهُ ، وذلك هو النصُّ على أن مقدمتَه التي قَدَّمَ بها للمقالات بعد جمعها في كتاب ، كانت (نصاً فنياً) قاطعَ الدلالة عليه عند العارفين بالأساليب ، عَرَّفَ به ، ونَصَّ كلامَهُ كلَّهُ إليه ، على الرغم من أنه عمل على أن (يُنَكِّرَ) في المقالاتِ نفسِها (معارفَه) .

* *

---

(١) بهذا السمو الروحي انعقدت الأواصر بينه وبين بعض أصدقائه المسيحيين ، ومنهم فيلكس فارس .

جملة القول في السفود:

رجع (السفود) بعد تناسخ الأيام من دونه كتاباً للتاريخ وحده يحكمُ له أو عليه. وما كان كذلك لم يكن لغير الفن الخالص أو العلم الخالص حظٌّ يَخْلُدُ به أو يَبِيْد.

أما الفنُّ فقد مَرَّ للقارىء الكريم كافٍ من القول فيه، وفي سياقه وبواعثه في هذا الكتاب، بسلب أو بإيجاب؛ وسيعرفُ بنفسه ما يعرِفُ من ذلك أو يُنْكِر.

وأما العلمُ، عِلْمُ الأدب والفكر، فهو الجانبُ الباقي منه، المستحق من أجله أن يعاد نشره.

• وللكتاب بعدُ غرضٌ، وقد توسل له صاحبُه بأسلوب، وحَشَدَ له من المادة.

أما غرضُهُ فالكلام على (ديوان العقاد) في المقام الأول، ثم على شيء من كلامه في فلسفة الجمال. نفى فيه الرافعيُّ الشاعرية عن العقاد حين نفى عنه الخيالَ الشعريّ، وذوقَ الشعر، والقدرةَ على العبارة الصحيحة الشاعرة عنه.

وأما أسلوبُه فهو ذاك الذي فرغنا منه لتونا.

• وأما مادته، أعني **ما اشتمل عليه من الفكر والعلم**، فهي غرضُنا الذي نرجو أن نبلغ مبلغاً في بيانه.

جوهرُ الشعر الأَجَلُّ عند العقاد، وردُّ الحكم فيه إلى قارئه المنتفع به:

فأما خيالُ العقاد وذوقُه، وما كان وراءهما من نفسٍ شاعرة أو شعور، فنحن نترك الحكمَ فيه كلِّه لقارىء شعرِ العقاد أساساً؛ اعتقاداً منا نعتقدُه، نتسعُ فيه باتساعِ الحياةِ الإنسانيةِ، ونُفْسِحُ فيه لما لا يُحَدُّ من اختلافِ المشاربِ والأذواق.

• جوهرُ الشعر عند العقاد نَـفْسٌ تتصلُ بِـنَـفْسٍ ، وشعورٌ يؤدي إلى شعور ، فمن تأدى إليه ذلك من شعره فالشعر عنده صحيحٌ شاعرٌ لا محالة ، وقد حَقَّقَ دورَهُ وأدّى رسالته ، ولا عليه بعد ذلك من تَعَقُّبِ متعقبٍ ، أو زراية زارٍ عائب.

نعتقدُ هذا على الحقيقةِ ونصححه ولا نُماري فيه ، ونرى أنه لولا اختلافُ المشارب والأذواق لم تَـقُمْ لأكثرِ ما يصنعُ الصانعونَ ويُبْدِعُ المبدعون قائمة ، ولبَطَل أكثرُ ذلك ، ولم تَـبْقَ إلا صورةٌ واحدةٌ أو صورٌ قليلةٌ تُحْمَلُ عليها الأنْفُسُ ، فليس في غيرها زادٌ ولا متاع.

فـن الشعر عنـد الرافعـي ومعيـاره فيـه الـذي يُـعايِـرُ بـه:

• غير أن الرافعيَّ يرى هذا أيضاً ولا يقول غيره ، إلا أنه يزيد عليه أن مع جوهرِ الشعورِ جوهراً آخر لا يتم جلاؤه وانكشافُهُ إلا به ، ولا تكونُ المتعةُ بالفن إلا معه.

بل هو فيصلُ الفنِّ ومعياره ، إذ كانت موادُّهُ في الأنفس الإنسانية واحدةً أو تكاد. وإنما الفَرْقُ والمَزِيَّةُ في البيانِ عن هذه المواد بياناً يكشِفُ ويُمْتِعُ في آن ، ويكونُ له من كشفِهِ وإمتاعِهِ وشيءٍ آخَرَ معه لا يُحَدُّ = روعَةٌ تُخالطُ الأنْفُسَ ، وتزيدُ فيها زيادتَها التي لا تقعُ في حساب المعنى وحْدَه ولا الألفاظِ وحْدَها ، ولكن فيهما مجتمعين ، وفي ذلك الآخرِ الغامضِ غَيْرِ المحدود.

فتلك هي الصنعةُ الفنيةُ الكاملة ، وذلك هو البيانُ الكاملُ ، لا يتحقق صاحب الفن به حتى يستوفي حظه من أسبابه وأدواته. وهو غنيٌّ عن البيان أن من تَـيَمَّمَ الكمالَ في الفن فالصحةُ من شَرْطِهِ لا محالة ، صحةُ أداتِهِ التي بها يتحقق ، على قانونِ ذلك المعروفِ عند أهله؛ وهو هنا قانونُ العربيةِ الجامعُ في الألفاظ ومعانيها ومجازِها ووجوهِ تَصَرُّفِها؛ ومن أوضاعِها المركبةِ

التي تَنْـتَظِمُ فيها هذه الألفاظُ ، وأنحائِها ووجوهِ دِلالاتها؛ وما اتصلَ بذلك من أعاريض الشعر وقوافيه ـ إذا كان المقامُ مقامَ شعر ـ وما يجوز فيه وما يمتنع ، وبالتصرفِ في هذا كلِّه تصرفاً صحيحاً واحداً ملتئماً غَيْـرَ متناكر .

مطـاعـن الـرافـعـي عـلـى ديـوان الـعـقـاد :

● فمن هـذا الوجه نَـفَـذَ الرافعـيُّ إلـى شعر العقاد ، وعليه أدار جمهورَ نقده .

● اعتَـدَّ عليه فيما قاله من شعره بِبِنْيَـةِ الشعرِ الظاهرةِ مؤديـةً عن بنيتِـهِ الباطنة ما يتأدى بها ، ورتَّبَ على ألفاظ ديوانِـهِ وأساليبه ما يترتبُ عليها من وجوه الدلالة ، وذهبَ يستخرجُ معانيها على حسب ذلك ، ويقابلُ بينها وبين نظائرِها في ديوان الشعر العربي ، كاشفاً بالمقابلة ما لابد من انكشافه ، وما لا يظهر لقارىء لا رواية له ولا تفتيش .

وانتهى من ذلك إلى نتيجتِهِ الظاهرة : أنه لا يكفي في الشعر أن يُؤديَ أداءً كيف كان عن خَلَجات الوجدان ، وأنه لابد له من ظاهرٍ مُحكَمٍ مُسْتَوفٍ لعناصر الصحة والجمال ، ليؤديَ أداءَهُ المرجُوَّ عن ذخائر الضمائر والأفهام .

● وأخذ عليه في تضاعيف ذلك أشياءَ نَسَبَهُ فيها إلى الغلط ، ونعى عليه أشياءَ يَكْرُمُ الشعرُ عنها ، التقط بعضها من شعره ، ودار به في المقالات دورةً مستشنعة ، صَيَّرَهُ بها شُهْرةً ، وجلعها علماً عليه .

● وقد كان هذا من فعل الرافعي أحَدَ ما آخذه نقادُه عليه ، وبقولهم نقولُ ، تنزيهاً لمقامات الكلام كلِّها إلا عن حُرٍّ كريمٍ من اللفظ ، في خصم كانت أو صديق .

إلا أنا نَردّها إلى موضعها من شعر صاحبها أولاً ، ونَعْجَبُ له قبل عجبنا ممن شَنَّعَ بها عليه : نعجب له يرفعُها من مناسبتها التي قيلت فيها ، وكان

لها من تلك المناسبةِ ظاهرٌ من شفيع ، ليثبتها في ديوان شعرِه لقارىء ديوانه ، قارئ اليوم وقارئ الغد ، ذخيرةً تحفظ ، ومعنىً إنسانياً يَخْلُدُ ولا يَبِيْد.

وما كان من هذا القبيلِ ، في الشعر وفي غير الشعر ، آخِرُ ما يمكن أن يُعَدَّ في الفن ، ويكون له ما يُضافُ إلى الفن من دورٍ مرسوم ، في ترقية الأنفس ، وتربية الذوق والشعور.

والعجبُ ممن يتكلمُ في الرجلين على قانون النَّصَفَةِ والتجرد لا يضعُ ما كان بينهما وضعاً تاريخياً واحداً ، ويزنُهُ بميزانٍ واحد ، ويحقّقُ أَوَّلِيَّتَهُ وأسبابَهُ ، ويَفْرِقُ ما بين ظواهرِه وخوافيه ، ويَعْتَدُّ بما أدى منه إلى حقٍّ خالصٍ في كل أدبِ فكرٍ أو نَـفْسٍ أو قول ، دون ما يساق للشَّغْبِ ، وإثارة الخواطر ، وصرفِ الأشياء عن مقاصدها الأولى ، ولبابها النافع الصريح.

● وقد كان ينبغي أن تكون قضيةُ السفود منتهيةً عند قارىء العربية منذ أمد بعيد ، بتخليص القول في طرفي القضية ، وتجريد ما كان لكل واحد منهما محضاً صريحاً لا دَخَلَ فيه ، بلا عصبية ولا تحامل يحملان على الغُلُوّ في القول ، فيذهبان بالمحاسن ويَطْمِسان على الحقائق ، ويذهبُ بغلوهما ما ينعقدُ الرجاءُ بكل فكرٍ أو أدب أو فن أن يصنعَهُ ، في الجوهر واللباب من حياة الإنسان.

نقدُ الشعر من جهة ما فيه من الصنعةِ الدالةِ على سَعَةِ الذَّرْعِ في الفن الكاشفةِ عن المعنى: أصعبُ أبواب نقده:

والذي أخذ فيه الرافعي بعدُ من نقد الديوان بابٌ من نقد الشعر هو أصعبُ أبوابه وأبعدُها متناولاً من طالبه ، بل هو كذلك في نقد الفنون عامة ، على ما تؤدّيه بديهة النظر وواقع الحال في آن ، هو باب مافي الفن الواحد من دقائق الصنعة التي تكشف عن سرائره ، وتنزيل هذه الدقائق في

منازلها: من سمو وارتفاع ، أو توسط ، أو غير ذلك ، ومقابلة ذلك بما يكشفه ويُـوَكّده من النماذج المعتبرة في ذلك الفن.

ولعُسْرِ هذا الباب وشِماسِهِ وبُعْدِ غايتِه إلا على من أقبل عليه بآلته ووسائله = يتحاماه أكثرُ من يكتبون في نقد الفنون ، ويأخذون في الظاهر بظاهره ، دون ما وراءه من خفيِّ الصنعة والتكوين. ويَغْلِبُ ألا يكونَ نقادُ هذا الباب خاصة إلا من أصحاب الفنون أنفسِهم ، أو من كبارِ النقادِ الذين هم في ذواتهم فنانون حقيقيون ، أفردهم السرُّ العاملُ عَمَلَهُ في الأرضِ لبابٍ من الفن غَيْرِ بابِ الخَلْقِ والإنشاء.

والذي قَـدَرَ عليه الرافعيُّ في هذا الباب خاصةً ـ في عامّةِ ما تَكلّم عليه ، في هذا الكتاب وفي غيره ـ لم يَـقْدِرْ عليه من أهل عصره أحد ، ولا اقترب منه ، إلا ما كان من العلامة الكبير محمود محمد شاكر ، في أُخْريَات حياة الرافعي[1] وبعد وفاته. وهو عبقريةٌ فنيةٌ أخرى بالمعنى الكامل للكلمة ، كما يعرفُهُ العارفونَ بآثاره.

• وبما ساقه الرافعي في نـقَدَاته ، وفيما صَرَفَ إليه وجوهَ القول ، من ذخائر المحفوظ ، ودقائق النظر والتَّـفْلِيَـةِ والتفتيش ، وفنونِ المقابلةِ بين النظائر والأشباه = تجلّى مؤرخُ الأدب وناقدُ الشعر في شخصيته الأدبية بأتم وأنفذ ما يُعْرَفُ من ذلك؛ وأبانت عن نفسها الروايـةُ المستطيلة الحاذقـة ، والمعرفةُ البصيرةُ بطبقات المعاني ووجوهِ تشقّق بعضها من بعض ، والرفقُ

---

(١) كتب الأستاذ محمود محمد شاكر كتابه (المتنبي) سنة (١٩٣٦) قبل وفاة الرافعي بسنة ، وقرظه الرافعي نفسه بكلمة بديعة كاشفة. ومن أجل الملكة العلمية الراسخة التي تجلّت في الكتاب ، وما فيه من عجيب الاستنباط ومن روعة البيان = نَحَى الدكتور فؤاد صروف ، بعلميته الراسخة هو أيضاً وبذوقه الأدبي ، ما دُفِعَ إليه من بحوث عن المتنبي ، وأفرد عدد (المقتطف) التذكاري لبحث الأستاذ وحده.

باللفظ والتلطفُ له ترفُّقَ شاعرٍ صانعٍ وتلَطّفَهُ ، لِيُبِيْنَ عن معناه الغائرِ في القلب الذي لا يُبِيْنُ عنه غيره ، والعلمُ بمتن اللغة وبعلوم العربية المعترضةِ في أدب كل أديبٍ شاعر أو ناثر ، والتي لابد منها لهذا الأدب ، غريزةً مفطورةً ، أو علماً مكتسباً ، يَـقْدِرُ بها الأديبُ على مادته ، ويَصِحُّ له تصرفه في وجوه معانيه.

وبهذا كله كشفَ الرافعيُّ عما في شعر العقاد الذي تكلم عليه من وجوه الوهن والعيب ، مما لا يظهر لقارىء شعره الآخذ فيه من قريب.

ومن أجل ما تهيأ له في نقده كانت أمنيةُ المتمني أنْ لو كان كلامُ الرافعي بريئاً مما خالطه من قوارص القول ، نفاسةً به أن يداخِلَ جوهرَهُ الكريمَ أدنى شيء.

وأما بعد:

فللقولِ المنصفِ في الرافعي والعقاد رحمها الله مُنْتدَحٌ واسعٌ ، وفضاءٌ عريض ، إذا أقبل عليه فارغٌ له لم يَـكَدْ يَـفْرَغُ منه. فكلا الرجلين عبقريةٌ على حِدَة ، لها نظامُها الباطنُ ، وأسلوبُها الذي تقبل به على الأشياء ، وكلاهما بحرٌ زاخر ، وأفقٌ من الفكر والأدب عظيم. وعلى أن من كمالِ الحالِ بالقياس إلى دارسٍ لهما ، راجٍ أن يَـنْـتَـفِعَ بنفسه ، وأن يَنْفذَ في درسه إلى كريمٍ من الرأي يُـنْتفَعُ به ، أن يتجرد لذلك وُسْعَهُ ، حتى لو بقيتْ في نفسه بقيةٌ يَـنْزِعُ فيها بالهوى ، من أجل أنه ليس الهوى هنا إلا شجَناً من شجَنِ الإنسان في الأرض، وإلا موضعاً في قلبه ليس لشيء عليه من نفاذٍ ولا سلطان.

وقد كانت بقيتْ بقيةٌ من القول فيما كان بين الرافعي والعقاد لها خَطَرٌ ، وأشياءُ من القولِ في بعض مادةِ هذا الكتاب من وجهٍ غَيْرِ الوجه الذي كنا فيه ، وأشياءُ أخر يَتِمُّ بها وَجْهُ الرأي ، ويَطَّردُ نَسَقُ التاريخ؛ إلا أنا نُمْسِكُ عن هذا كلّه ، ونرجو أن يَسْتقِلَّ به موضعٌ آخَرُ إن شاء الله.

